عودة الذئب

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب:	عودة الذئب
التأليف:	سامية أحمد
موضوع الكتاب:	رواية
عدد الصفحات:	252 صفحة
عدد الملازم:	16 ملزمة
مقاس الكتاب:	14 × 20
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	2017 / 27926
الترقيم الدولى:	ISBN: 978 - 977 - 278 - 661 - 9

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

عودة الذئب

سامية أحمد

دار البشير
للثقافة والعلوم

عودة الذئب

عاصفةٌ هوجاء تهبّ، فيخاف منها البشر والحيوانات، فتدمّر كلّ شيء حتى لا يجد الناس مكانًا يجتمعون فيه، فالشجر قد اقتلع من جذوره، والبيوت قد تهدّمت.

ويبقى ذئب وحيدًا يقف بشموخ على صخرة ناظرًا إلى العاصفة، فيتشبث الذئب بمكانه دون حراك، حتى عندما ينسلخ جلده يبقى صامدًا لا يتحرّك، ولا يصرخ، ويبقى محدقًا بعدوّه إلى أن يموت.

هكذا نحن...

سنبقى على الجبل، ننظر إلى الموت المحيط بنا دون أن نخاف منه!

***

(1)

جلس شاردًا على حافة صخرة كبيرة، يتأمل قطرات الماء، التي تسيل ببطء وانتظام من أوراق شجرة قريبة، معلنة نهاية الشتاء القارس، وبداية الربيع.

كانت الشجرة الفتية تحاول جاهدة أن تنفض عن أوراقها بياض الشتاء الباهت لتستبدله بخضرة الربيع الزاهي، وتلون الحياة بالبهجة بعد شهور طويلة من القتامة.

تتبعت عيناه قطرات الماء، التي انزلقت من الجليد النائم فوق الأوراق، لتهوي سريعًا إلى الأرض وتستقر عند الجذع الضخم.

"زهرة" صغيرة جذبت عينيه إليها، ومنعتهما من الصعود مجددًا إلى قمة الشجرة ليبقى محدقًا بها للحظات.

"زهرة" تسكن عند الجذع، يُحيط بها بيت من ثلج، تطل منه على العالم، تترقب عودة الربيع، ليذيب قضبان سجنها الزجاجي، لتخرج للحياة من جديد.

تمنى لو يمد يديه ويكسر السجن الجليدي من حولها، ليعيد إليها الحياة.

لكنه تذكر أنَّ الأوان لم يحن بعد.

رفع عينيه إلى السماء. ومدّ بصره بعيدًا خلف قمم الجبال التي تغطيها الثلوج.

هناك...

حيث ترك قلبه.

عاوده الحنين والشوق للعودة إلى هناك، إليها.

اصطدم الهواء البارد بوجهه، فاستنشقه بعمق، وكأنما وبرغم البعد يجد فيه رائحتها، تمنى لو يتشبث بأنفاسه، ببقايا عطرها الذي يدفئ قلبه.

- (أيها القائد)!

غادر شروده وحنينه، وكتم شوقه بين أضلعه، والتفت إلى محدثه الذي قال:

- لقد عاد الشابان من المهمة.

كرر الجندي عندما لم يتلق ردًّا:

- أيها القائد، إنهما بانتظارك.

قال القائد ببطء وبعد صمت:

- أنا قادم.

عادت عيناه تنجذبان من جديد للزهرة الصغيرة السجينة، ثم مدَّ بصره بعيدًا خلف قمم الجبال، ألقى بنظرة حانية أخيرة إليها هناك.

زفر بقوة وعزم، ولمعت عيناه ببريق قوي وهو يهمس:

- سأعود!

***

دخل القائد إلى الغرفة التي ينتظره فيها الشابان قائلًا:

- السلام عليكم.

رد الشابان اللذان دخلا العشرينيات منذ شهور قليلة السلام، وهما يقفان أمام القائد باعتدال، وعلى وجه أحدهما، استقرت ابتسامة ثقة كبيرة لفتت انتباه القائد، فتأمله قليلًا قبل أن يقول:

- اجلسا.

جلس الثلاثة حول منضدة صغيرة في وسط الغرفة، وأصغى الشابان باهتمام إلى القائد الذي سأل مباشرة:

- كيف كانت المهمة، وما آخر الأخبار؟

قال الأول بجدية:

- لقد جمعنا كل المعلومات اللازمة عنه، ولكن...

يبدو أنَّ المهمة ستكون شديدة الصعوبة.

شبك القائد أصابعه فوق المنضدة وقال بهدوء:

- لكنَّ الأمر يستحق، فهو شديد الأهمية بالنسبة لنا.

قال الثاني، وابتسامته الدائمة تضفي بريقًا سمحًا على وجهه، مما جعل القائد ينظر إليه طويلًا وهو يستمع له:

- قد يكون الأمر صعبًا لكنه ليس بمستحيل، وبقليل من التفكير، يمكن أن نرسم خطة محكمة للإيقاع به.

تنحنح الأول وقال بتردد:

- ولكن المسافة طويلة للغاية، والأمر شديد الخطورة، وقد نتعرض للكشف في أي وقت.

لن نستطيع إنجاز المهمة!

رماه القائد بنظرة قوية وقال بعزم:

- لا بدَّ من إنجاز المهمة مهما كانت التضحيات، وسنحضره إلى هنا مهما كان الثمن!

ثم أردف بلهجة واثقة:

- لديّ خطة محكمة!

أخذ القائد يشرح خطته للشابين، وبعد أن انتهى، هتف الأول بدهشة:

- حقًّا، خطة رائعة، ولكن؟ ألن يشكَّ في الأمر؟

اتسعت ابتسامة الثاني لتشمل كل وجهه، وهو يقول بحماس كبير:

- الطُعْم أقوى بكثير من أن يدع له فرصة للشك.

هزّ القائد رأسه ونظرة شديدة الدهاء تطل من عينيه:

- هذا صحيح، إنه شديد الطمع، وسنستغل هذا جيدًا، لن يفوت مثل هذه الفرصة أبدًا، حتى لو كانت لديه نسبة شك بسيطة!

قال الأول:

- ولكنه شديد الدهاء، أخشى أن يفاجئنا بحركة غادرة!

رد القائد بثقة:

- لن يدرك الأمر إلا بعد أن يكون بين أيدينا.

وقريبًا جدًّا، سيكون بين أيدينا...

قال الجملة الأخيرة، وهو يطبق قبضته بقوة، وعيناه تشعَّان ببريق شرس، يجعلهما أشبه بعيني ذئب!

***

أطلت شمس الصباح الدافئة، تُقبِّل وجه النهر الجميل، وتنثر حبات اللؤلؤ والماس، فوق مياهه الصافية، لتزيده جمالًا وبهاءً، في أحد أيام

الربيع الدافئ، الذي يُلقي بثوبه الأخضر الزاهي على الأشجار، لترقص فرحة على أغنيات الطيور الشجية.

ملأ "محمد" عينيه بذلك المشهد الرائع، الذي يخلب القلوب والألباب، وهو يقود سيارته المستأجرة، عابرًا فوق كوبري قصر النيل في وسط القاهرة، والذكريات تأتي إليه من كل مكان.

ذكريات الفتوة والشباب.

أيام عديدة قضاها في أحضان ذلك البلد الدافئ الحنون، بين جامعة الأزهر العريقة، وحيِّ الدَّرَّاسة، ومدينة البعوث...

قطع ذكرياته عندما وصل إلى وجهته.

إلى شارع "محمد علي" الشهير.

أوقف السيارة، واتجه إلى شارع المغربلين الضيق، سيرًا على قدميه.

وفي هذا الشارع الضيق العريق، الذي يقبع في آخره أحد الأبواب الأثرية للقاهرة الإسلامية، جلس على مقهى صغير، ليشرب كوبًا من الشاي المصري، المعطر بالنعناع الذكي، الذي اشتاق إليه طويلًا، أثار وجوده فضول أهل المنطقة، فهو غريب عن أهل الحي، الذين يعرف بعضهم بعضًا جيدًا، كما أنَّ مظهره لا يبدو كسائح، أتى لرؤية المعالم الأثرية للقاهرة القديمة، أخذوا يتأملون وسامته الشديدة، ووجهه الأربعيني الأبيض المشرب بحمرة، والذي يختفي أغلبه، تحت لحيته المستديرة الناعمة السوداء، إلا من بعض شعيرات بيضاء، تناثرت فوقها.

قام بعض رواد المقهى، باستثارة فضول صاحب المقهى "الحاج جاد الله"، ليعرف مَن هذا الضيف الغريب، وما الذي أتى به إلى ذلك الشارع الشعبي الضيق.

اتجه "الحاج جاد الله" إلى الطاولة، التي يجلس إليها الغريب، وخاطبه بودٍّ قائلًا:

– السلام عليكم.

التفت إليه "محمد"، وقال بابتسامة شديدة الوقار:

– وعليكم السلام ورحمة الله، تفضل بالجلوس.

جلس صاحب المقهى، وهو يقول بابتسامة ودودة:

– يا مرحب يا مرحب، حضرتك مش من مصر أكيد؟

أجاب "محمد" بودٍّ مماثل:

– أنا من بلاد بعيدة!

"جاد الله":

– يا أهلًا وسهلًا، نورت!

حضرتك أول مرة تيجي مصر؟

"محمد" باقتضاب:

– أنا أزهري.

– واسم الكريم إيه؟

– "محمد"

– يا مرحب يا شيخ "محمد"، أي خدمة؟

– أبحث عن السيدة "فتحية" أم سلطان

– مرات الأسطى بسيوني؟ أهه... بيتها في الزقاق اللي على يمينك ده، البيت التالت!

- جزاك الله كل خير، سأذهب إليهم بعد أن أنتهي من الشاي.

"جاد الله" بفضول:

- إنما لا مؤاخذة يعني، أنا مش حشري ولا حاجة،

هو حضرتك تعرفها منين؟... وعاوز منها إيه؟

التفت إليه "محمد" ببطء، ورماه بنظرة قوية أخجلته.

فضحك بخجل:

- لا مؤاخذة، البيت أهه، هما ساكنين في الأرضي.

(يا اسطى بسيوووووووني. يا أبو سلطان، يا اسطى بيسووو)

التفت الجميع صوب الصوت، ينظرون بفضول إلى فتى وسيم يدخل الحارة، بصخب غير عادي، مشاكسًا بيديه في مرح كل مَن في طريقه.

"جاد الله" بتأفف:

- يا فتاح يا عليم! إيه اللي حدفه علينا ده؟ ما كنا مرتاحين من وشه بقالنا أسبوع!

ربنا يعدي اليوم ده على خير!

تأمل "محمد" الفتى باهتمام شديد، وظلَّ يركز نظراته عليه، وهو يشرب كوب الشاي ببطء...

كان يبدو من هيئته أنه شاب مستهتر، طويل. يرتدي ملابس ضيقة ذات ألوان صارخة، وشعره الفاحم طويل ومصفف بعناية، ولامع بفعل مثبتات الشعر الكيميائية.

اقترب الفتى من المقهى، وهو يقبل أصابع يده بصوت ملحوظ:

- صباح الفل يا عم "جاد".

"جاد الله" بضيق:

- ما كنا مرتاحين، يا ترى أنهي مصيبة حدفتك علينا؟

استر يا رب!

الفتى:

- الله الله، جرى إيه يا عم "جاد"؟ هو أنا كنت جوز أمك؟ "مالك" كده واخدني عالحامي؟

- اطّرّق يله من هنا لحسن أقوم أمسح بيك الشارع!

- ليه كده بس؟ دانا كنت جايبلك طلبية جديدة، وبسعر مهاود!

- تغور من وشك، ربنا يكفينا شرّك!

نظر الفتى تجاه محل الميكانيكي المواجه للمقهى وهو يشير بيديه بالتحية

- صباحك قشطة يا عم "فرغلي"!

ظهر على وجه "فرغلي" الاشمئزاز، وأدار ظهره له، ولم يرد.

التفت الفتى "لجاد الله":

-بالراحة شوية عليا يا عم "جاد"، مش كفاية أبا "بسيوني" طردني من البيت، ومش عاوز يبص في وشي!

- من عمايلك السودة، كفاية البهدلة اللي اتبهدلها بسببك، جرجروه عالقسم وسين وجيم...

مخدرات يا بن ال... ولا بلاش!

انت يله مش هاتبطل شغل الشياطين ده؟

لاحظ الفتى أنّ "محمد" لم يحول عينيه عنه منذ بداية الحوار، فركز نظراته عليه، وهو يقول مخاطبًا "جاد" بمسكنة:

- طب والله بريء، دول حتتين حشيش عُمْي، الواد "قطوشة" هو اللي دبسني فيهم!

(يا "عمر"... يا "عمر")

التفت الجميع صوب صوت الفتاة، التي تطل من شرفة بيت "فتحية"، وهي تقول:

- تعالى، أمي عاوزاك!

يشير الفتى بيده وهو يقول:

- ماشي... جاي على طول.

"جاد الله":

- يالله يله غور من هنا... وبطل شغل اللبط بتاعك ده!

- ماشي يا معلم، أنا رايح أشوف أمي.

يتابعه "محمد" بعينيه وهو يتمايل مختالًا في مشيته، حتى يغيب داخل بيت "فتحية" أم سلطان ثم يلتفت إلى "جاد الله" ويسأله باهتمام:

- ابنها؟

"جاد الله" بانفعال:

- ابنها مين؟ الله يحرقه... دا واد ابن حرام!

رماه "محمد" بنظرة قاسية.

فارتبك "جاد الله" لحظة، ثم استعاد هدوءه:

- ولا مؤاخذة، أصله مش ابنها، هي مربياه بس، بيقولوا إنه ابن الدكتور "صابر" اللي كانت بتشتغل عنده من سبعتاشر سنة!

يكمل "جاد الله" باهتمام مَن وجد مستمعًا جيدًا:

- الدكتور ده كان بيسافر كتير، وهو اللي اداها الواد ده، جالها بيه في ليلة، ووصاها عليه، واداها فلوس، وقالها إن اسمه "عمر الديب"

ضحك "جاد الله" بسخرية:

- أهه حاجة كده زي الأفلام العربي!

يظهر إن الواد ده ابنه من... أستغفر الله، أصله ماكانش متجوز، ومالوش قرايب، ولما جوزها "بسيوني" عرف، شال الواد وراح على بيت الدكتور علشان يرجعهوله، لكن مالقاهوش.

البواب قاله إن البوليس قبض عليه، ولحد النهارده محدش يعرف راح فين!

الأسطى "بسيوني" ومراته ما هانش عليهم يرموا الواد في الشارع، ربوه وسط عيالهم، ورضعته على بنتها "زينب"، البت اللي كانت بتنادي عليه من شوية.

عارف يا حضرة!

كل ما كنت بشوفه وهو صغير، كنت أقول لنفسي:

- الواد ده يا إما يطلع حاجة كبيرة قوي، يا إما يطلع حرامي

من صغره، والذكاوة والنباهة بتنط من وشه!

كان واد حلانجي كده، بس دمه خفيف، والحارة كلها تحبه.

ده حتى الأسطى "بسيوني" كان بيحبه قوي، وكان بيفضله على عياله اللي من دمه ولحمه!

لكن تقول إيه، بلوة واتحدفت عليهم!

"محمد" بهدوء:

- لا يمكن أن نحاسب إنسانًا على خطأ ارتكبه غيره.

"جاد الله":

- إنت أصلك راجل طيب، وما تعرفش اللي عمله!

الواد ماتمرش فيه اللقمة الحلال، اللي كالها في بيت الأسطى بسيوني، اتلموا عليه شوية عيال صايعة، ومشي في كل السكك البطالة، إشي سرقة على نصب على مخدرات، يا ستار يا رب، عامل زي المنشار، همه يجيب فلوس وبس!

دا حتى المدرسة مافلحش فيها، كان بيسرق العيال، وطردوه منها بفضيحة

مش بقولك؟... دا واد ابن حرام!

انتفض "محمد" بحدة، ووضع بضع ورقات نقدية على الطاولة، وهو يقول متجهمًا باقتضاب:

- شكرًا على الشاي... السلام عليكم!

ورحل بخطوات سريعة، مودِّعًا بنظرات العجب والدهشة من "جاد الله".

***

دق "محمد" باب منزل "فتحية" أم سلطان

ففتح الباب "عمر"، وأخذ ينظر إليه باستغراب، وعيناه ممتلئتان بالريبة:

- مش انت اللي كنت قاعد مع "جاد الله" القهوجي؟!!

قال "محمد" بجدية وهدوء:

- السلام عليكم... أريد التحدث إلى السيدة "فتحية" أم سلطان.

"عمر" بريبة:

- نقول لها مين؟

صديق للدكتور "صابر عبد التواب"

جلس "محمد" ينتظر السيدة "فتحية" على الأريكة البلدية في وسط الصالة الضيقة، في بيتها الصغير القديم، الذي ينضح الفقر من جدرانه المتهالكة الممتلئة بالشقوق، وجلس أمامه الأسطى "بسيوني" الذي قدم مسرعًا، عندما ناداه "عمر" من دكانه، الذي يقع في آخر الحارة.

جلست السيدة "فتحية" بعد أن قامت بنفسها بتقديم واجب الضيافة للضيف الذي بدأ يتحدث إليهم، قاطعًا كل نظرات التساؤل والشك في العيون:

- أنا "محمد"، صديق الدكتور "صابر عبد التواب".

تعرفت إلى الدكتور "صابر" عندما كان مكلفًا من قبل نقابة الأطباء المصرية، بمهمة إنسانية طبية في بلادي.

وتصادقنا، وصرنا كأعز الأصدقاء. وقبل سفره قدم لي الدعوة لزيارته في مصر، وغادر بلادي، ولم أره منذ سبعة عشر عامًا وطوال هذه المدة لم تتح لي الفرصة لزيارة مصر، وعندما تحسنت الأحوال واستطعت الحضور إلى مصر، ذهبت لزيارته ولم أجده.

"فتحية" بأسى وهي تمصمص شفتيها:

- يا حول الله يا رب!

"بسيوني":

- البوليس قبض عليه من سبعتاشر سنة، ومحدش يعرف له طريق جرة

"محمد" بدهشة:

- لماذا؟!!

- والله ما حد عارف، أهم بيقولوا سياسة، وناس بتقول إنه كان مع الجماعات.

تجهش "فتحية" بالبكاء:

- دا كان راجل سكرة، ما يستحقش اللي جرا له، الله يجازي اللي كان السبب

هز "محمد" رأسه بأسف وتنهد بحزن!

بسيوني:

- إنما ولا مؤاخذة حضرتك بتتكلم عربي كويس؟

"محمد" يلتفت إليه:

- أنا أزهري، تعلمت في الأزهر، وقضيت في مصر فترة شبابي!

التفت "محمد" إلى "عمر"، الجالس قبالته على كرسي خشبي قديم، ونظر في عينيه وهو يقول:

- أنت "عمر"؟

"عمر" بريبة:

- إيه؟! انت تعرفني؟!

ظهر شبح ابتسامة على زاوية فمه، وأطلت من عينيه نظرة غريبة وهو يقول:

- أنت الذئب!

نظر إليه الجميع في صمت، والدهشة تطل من عيونهم!!

("عمر")

شق المكان صوت صراخ رهيب قادم من الحارة، أفزع كل مَن في البيت،

فجرى "عمر" إلى النافذة:

- إيه؟!! فيه إيه يا ريس "فرغلي"؟

"فرغلي" بغضب:

- انزلي هنا يا بن الديابة لا أطلع أشرحك!

"عمر" بغضب:

- ايييييه انت هاتشتغلي؟

طب أنا نازلك...

خرج "عمر" من المنزل جريًا وهو يهتف:

- جرى إيه؟ واقف تسيحلي في وسط الحارة؟ حصل إيه لده كله؟

أمسكه فرغلي من ملابسه:

- فين إيراد الورشة يا كلب يا حرامي؟

من ساعة ما اصطبحت بوشك، وأنا بقول اليوم ده مش هايعدي على خير!

دفع "عمر" يده بغضب:

- ما تشتمش، وأنا مالي أنا ومال إيراد الورشة؟

هو أنا جيت جنبك! ما تشوف مين اللي دخل الورشة النهارده!

صرخ في وجهه:

- مفيش حرامي وابن حرام في الحارة غيرك، وديني إما قبيت بإيراد الورشة لأبيتك متفشفش في "أحمد ماهر"

"حوده"... كتفه!

يحيط به صبيان الورشة ويمسكون بيديه

"عمر" بغضب:

- هي دي المرجلة؟ بتخليهم يكتفوني؟

يبدأ "فرغلي" يضربه بوحشية وهو يقول:

- فين إيراد الورشة؟... انطق يا حرامي!

يتجمع كل مَن في الحارة ويقفون متفرجين إلا من بعض التعليقات:

- مش حرام؟!! كلكوا عليه!

- أحسن يستاهل، دا حرامي

يصرخ "عمر" من الألم ويسب "فرغلي" الذي رفع يده لتنزل على وجه "عمر"...

لكنها لم تنزل، فيدٌ أخرى أشد قوة اعترضتها

التفت "فرغلي" بغيظ إلى الشخص الطويل الممسك بيده، ليصطدم بعينين يملؤهما غضب مخيف، وصوت صارم يقول:

- يكفي هذا!!

ارتبك "فرغلي" بشدة، لكنه قال:

- محدش يتدخل بيني وبين ابن الحرام ده، دا سرق إيراد الورشة!

قال "عمر" وهو يبكي:

- والله ما سرقت حاجة، هو انتوا ماعندوكوش حرامي غيري؟

"محمد" بصرامة:

- كم المبلغ؟

نظر إليه "فرغلي" بدهشة:

- مايتين جنيه!

يعطيه "محمد" المبلغ ببساطة وهو يقول مُحذِّرًا:

- خذ المبلغ ولا تلمسه!

انتهى الموقف وانفض الجمع وهم بين مذهول ومتعجب من هذا الغريب الذي يدفع مالًا لرجل لا يعرفه من أجل إنقاذ لص لا يعرفه!

مسح "عمر" دموعه في كمه، وهو ينظر بدهشة لهذا الغريب!

قال "محمد" باقتضاب:

- تعالى، أريد أن أتحدث إليك.

نهض "عمر" من الأرض، وانطلق خلفه بصمت وفضول لا مثيل له، حتى وصلا إلى حيث ترك السيارة.

فتح "محمد" باب السيارة وهو يشير إلى الباب المقابل ويقول بلهجة آمرة:

- اركب

تردد "عمر" ونظر إليه بارتياب.

قال "محمد" مُنهيًا تردده:

- هل تحب أن تكسب مالًا؟

اتسعت عينا "عمر" بلهفة:

- أنا خدامك!

"محمد" بصرامه:

- إذن اركب.

ركب "عمر" بجواره، وانطلق "محمد" بالسيارة ليدور بينهما حديث طويل.

"عمر":

- انت مين يا عم الشيخ؟

- أخبرتك من قبل، أنا صديق للدكتور "صابر عبد التواب".

- لكن ماقولتليش، هاتديني فلوس ليه؟!

- سأعرض عليك عرضًا، ما رأيك أن تعمل معي؟

"عمر" بتردد:

- ماشي، تحت أمرك، بس...

لا مؤاخذة ازاي هاتشغلني معاك وانت عارف إني حرامي؟

قال "محمد" في هدوء:

- لأنني اعتدت عدم الحكم على الناس إلا من خلال تصرفاتهم، وحتي الآن لم يبدر منك ما يجعلني أرفضك!

- طب وكلام الناس؟!

- أنا أري الأشخاص بعيني وعقلي، لا بكلام الناس.

"عمر" بدهشة:

– ياه... انت بتفكر غير الناس كلها!!

"محمد" باهتمام:

– لماذا طُردت من المدرسة؟

– لا، أنا محدش يقدر يطردني، أنا اللي سبتها بمزاجي!

– لماذا؟

– بصراحة زهقت منهم... أصل المدارس مابتكسبش فلوس، أنا كده أحسن!

– كان بإمكانك العمل والدراسة معًا!

– الصراحة قرفت من المدرسة باللي فيها

كنت ماشي كويس وميت فل واربعتاشر، لحد أولى إعدادي، لحد ما الواد "شوقي" ابن الأسطى "فرغلي" ما اتنقل الفصل بتاعي.

أكمل بسخرية مريرة:

– أبوه راح للمُدرّسة وقال لها: (الواد ده مايقعدش جنب ابني، أصله ابن حرام)... ومن يومها بقى الفصل كله يبعد عني زي ما أكون جربان، أما "شوقي" بقى، كان كل ما تضيع منه حاجة يلزقها فيا، ويشتكي للمُدرّسة إني سرقتها.

مع أنهم كلهم عارفيني من سنين. ومن يومها وكل حاجه اتشقلبت!!

هز "محمد" رأسه بتفهم:

– وكلما ضاع شيء أو سرق شيء فالسارق دائمًا موجود!!

"عمر" بسخرية:

– عليك نور... باس!! وعنها وسبتلهم المدرسة مطربقة على دماغتهم!!

وده كمان ريّح عم "بسيوني"، إيه اللي يزنقه يصرف على عيل مش من عياله؟!

"محمد" يهز رأسه بأسف:

- وأنت لم تدخر جهدًا لتؤكد لهم الصورة التي في ذهنهم عنك! صورة اللص!

"عمر" بمرارة:

- لو كنت عمالتلهم قرد، برده هافضل في نظرهم ابن حرام...

واديني خدتها من قصيره وبقيت حرامي!

آل ضربوا الأعور على عينه، قال خسرانة خسرانة!

- ما رأيك في من يمنحك فرصة تثبت بها عكس ما يظنونه؟

تثبت جدارتك في مكان آخر لا يعرفك فيه أحد، في مكان لا يقيّم فيه الإنسان إلا بعمله؟

- إيدي على كتفك!

"محمد" محذرًا:

- ولكن أحذرك فستسافر إلى بلاد بعيدة للغاية والعمل هناك شاق وقد لا تتحمله!

- يا عم خليها على الله، أنا بعون الله أفوت في الحديد، وبعدين مش انتوا هاتدوني أجري؟ خلاص...

قالوا ايش بلدك يا جحا؟ قال اللي فيها الفلوس. هاهاهاها!

"محمد" بجدية:

- حسنًا، فلتجهز حاجياتك، ولتعد لتودع أهلك، فقد يطول السفر إلى سنوات!

- يا عم قول يا باسط، أهل مين؟! أنا ماليش أهل، دي حارة غجر، وكمان ماليش حاجات، أهه على فيض الكريم!

عقد "محمد" حاجبيه وقال بدهشة:

- وماذا عن أمك التي أرضعتك؟ وأبيك الذي رباك؟

"عمر" بلا مبالاة:

- أبا "بسيوني"، ما هايصدق، دا مش عاوز يشوف وشي، وأمي مابتحبش المشاكل.

دي الحارة كلها هاتفرح وتزغرد علشان ارتاحوا مني!

صمت "عمر" قليلاً، ثم قال بعد تردد:

- بس، ليا سؤال...

انت بتعمل كده ليه؟!

- من أجل صديقي الدكتور "صابر"، فأنا مدين له بالكثير!

كما أني أريد أن أثبت لك أنّ هناك من يعاملون الناس بتعاليم الإسلام لا بنظرتهم الضيقة للحياة.

إن مَن ينظر للحياة من خلال الإسلام، يجدها أكبر بكثير مما يعتقد الناس

"عمر" بريبة:

- لا مؤاخذة الكلام ده مش داخل دماغي!

يعني، طب ما فيه ألف واحد غيري، وأحسن مني كمان، ومعاهم شهادات ويستحقوا المساعدة أكتر مني!

يصمت قليلاً ثم يقول:

- إنت كنت تعرف أبويا؟

اتسعت عيناه إعجابًا بذكائه، وقال ببساطة:

- ربما...

دهش "محمد" عندما لم يتلقَ أي رد أو كلمة أو حتى انفعال من "عمر" فسأله:

- ألا يهمك أن تعرف أنك لست ابن زنى؟

افتعل "عمر" اللامبالاة، ونظر بشرود إلى الطريق:

- ما تفرقش كتير، بالعكس كده أحسن، خلاص اتعودت!

وبعدين مش يمكن لو عرفت مين أهلي، أقع في مصايب وقواضي وبلاوي! أمال يعني إيه اللي يخليهم يرموني، إلا إذا كانوا واقعين في مصيبة؟

سوق يا عم سوق خلينا نشوف أكل عيشنا، بلا أهل بلا هم!

خلينا في السفر والفلوس.

وسافر "عمر" مع "محمد" بعيدًا...

إلى عالم مجهول، وحياة جديدة، لا يعرف ما ينتظره فيها!

***

(نجحت المهمة، أحضرناه)

هتف الشاب الباسم دائمًا بحماس شديد، لكن القائد لم يلتفت إليه، فسأله بدهشة:

- أيها القائد... أيها القائد، هل سمعتني؟!

انتزع القائد نفسه من شروده الذي اعتاد الجميع عليه، والتفت ببطء إلى الشابين اللذين نجحا في إنجاز المهمة، وقال بهدوء:

- هل آذاه أحد؟

قال الشاب الباسم وقد أطفأ رد فعل القائد حماسه:

- لا... لم يمسه أحد بسوء.

أكمل زميله:

- فقط عصبنا عينيه حتى لا يعرف الطريق.

القائد:

- وأين هو؟

- في الحجرة التي في نهاية الممر.

- حسنًا، سأراه بنفسي.

همّ بمغادرة المكان، لكنه توقف فجأة ونظر إليهما قليلاً، ثم اقترب من الشاب الباسم وسأله:

- ما اسمك؟

الشاب وقد عاد إليه حماسه وابتسامته:

- "جوهر"

التفت إلى زميله وسأله:

- وأنت؟

أجاب:

- "أحمد"

قال القائد بلهجة آمرة:

- لا تغادرا المكان، فسأطلب من القائد أن يضمكما إلى كتيبتي.

خفتت ابتسامة "جوهر"، وظهر على وجهه خيبة الأمل، لكن القائد لم يبالِ، وتركهما، ورحل بصمت.

التفت "أحمد" إلى "جوهر" وسأله بدهشة:

- ماذا دهاك؟ لماذا يبدو عليك الضيق؟

"جوهر":

- لا أريد أن أترك أصدقائي، لقد عشت معهم أيامًا طويلة، وتشاركنا في كل شيء، الطعام والشراب، حتى النوم. ولنا ذكريات جميله معًا.

"أحمد" متعجبًا:

- عجبًا لأمرك، كنت أظنك ستفرح. فما من شاب هنا إلا ويتمني الانضمام لكتيبة الذئب!

زفر "جوهر" بضيق وقال:

- ألم أقل لك من البداية أنّ وجودنا هنا لسبب آخر غير هذه المهمة؟ كما أنّ تصرفاته غريبة، ألا تري كيف يعاملنا؟

صمت قليلاً ثم أكمل بشرود:

- لا أظنني سأحتمل البقاء هنا طويلًا!!

***

دخل القائد إلى غرفة الأسير فوجده جالسًا على الكرسي قبالة الباب وقد أخذ ينظر إليه بمقت شديد.

سحب القائد كرسيًا آخر وجلس أمامه.

اندفع الأسير يقول بانفعال وتوتر شديد، ونظرات الكراهية تطل من عينيه كسهام حادة:

- لن تحصلوا مني على كلمه واحدة، لقد قمتم باستدراجي بحيلة خبيثة، لكنكم لن تستفيدوا من ذلك مهما فعلتم!

فأنا أفضل الموت على أن أبوح بأية كلمة.

انزعوا أظافري، حرقوا جسدي... لكني لن أنطق بكلمة!

كان القائد يجلس هادئًا صامتًا، وعيناه مركزتان في عيني الأسير الزائغتين.

كانت نظراته الثابتة تشع بالقوة، على الرغم من لثامه الأسود السميك، الذي يخفي رأسه ووجهه، والمغطى من أعلاه بعصابة خضراء، مكتوب عليها كلمة التوحيد.

قال بصوته الهادئ العميق، والذي زاد من توتر الأسير:

- لن نفعل أي شيء من ذلك، أعرف مدى عنادك، وكم أنت صعب المراس.

الأسير بتوتر منفعل:

- إذن ماذا تريدون مني؟

القائد بهدوء شديد يحطم الأعصاب:

- لا شيء، فقط سنستضيفك لدينا لبعض الوقت، لنرى كم تساوي لديهم!

الأسير:

- لن تنالوا أي مكاسب على حسابي.

القائد ببرود أشد من الثلج:

- حقًّا، فأنت وحدك لا تساوي شيئًا،

لكنها رتبتك!

ترى، كم تساوي من وجهة نظرهم؟

الأسير باستفزاز:

- تتكلم تمامًا كاللصوص وقطاع الطرق!

القائد بهدوء:

- من وجهة نظرك فقط، لقد اختطفت شخصًا، أو بضعة أشخاص، لكن الحقيقة هي أنكم اختطفتم بلدًا بأكملها، بكل ما فيها!

وكل ما نفعله الآن هو محاولة لاسترداد ما سرقتموه منا، والعودة إلى أرضنا.

الأسير بانفعال شديد:

- واهمون، هذه الأرض لنا، وستظل لنا لأننا الأقوى!

القائد بسخرية شديدة:

- هل تعتقد حقًّا أنكم الأقوى؟

ولكن نتائج المعارك التي نخوضها ضدكم تقول غير ذلك.

***

(ياه يا مولانا، إيه ده!! دانتوا بلدكوا في آخر بلاد المسلمين)

صاح "عمر" وهو يركب السيارة بجوار "محمد"

فردّ "محمد" بهدوء:

- لقد حذرتك من البداية أنها بلاد بعيدة، والحياة فيها شاقة!

- بس أنا كنت فاكر إننا هانركب مركب ولا طيارة!

لكن داحنا ركبنا كل الركايب اللي اخترعها البني آدمين

طيارة ومركب وقطر وعربية

يا خبر أبياض... إيه ده؟!! مافاضلش غير الصاروخ!

واللي مجنني إننا عمالين نعدي على بلد ونسيب بلد، ودنك منين يا جحا؟!

ابتسم "محمد" ابتسامة صغيرة وقال:

- يبدو أنك معجب كثيرًا بجحا!

الأمر ببساطة أن هناك توترًا في العلاقات السياسية بيننا وبين الدول المجاورة، لذلك اضطررنا إلى تجنب العبور خلال أراضيهم

عمومًا أوشكنا على الوصول.

توقفت السيارة أمام منزل كبيرمن طابقين له فناء واسع

ترجل الاثنان ودخلا المنزل ومعهما الأمتعة.

استقبل أهل المنزل "محمد" استقبالاً حارًّا، وأدرك "عمر" أنهم عائلته

والغريب أنَّ الجميع كان يتكلم العربية الفُصحى.

ثم، بدأوا بإغداق مشاعر الود والمحبة على هذا الضيف الجديد،

وسلموا عليه بحرارة... وكانت لحظات التعارف تحمل مشاعر دافئة صادقة، تعجب لها "عمر" كثيرًا، خاصة وأنه غريب عنهم، ولا أحد منهم يعرفه!

السيدة الكبيرة، ربة المنزل وزوجة "محمد" وهي أم لأربعة:

"مالك"... فتى يافع يماثله في العمر، ودود مرح، له ابتسامة طفولية لذيذة، لا تخبو أبدًا.

"زهرة"... فتاة جميلة هادئة في الخامسة عشر، لها وجه ملائكي يشع جمالاً ونورًا

"خالد"... طفل لطيف في السادسة، و"زينب"... طفلة جميلة، لم تتجاوز الثالثة.

أزال استقبالهم الحار وترحيبهم الودود، من نفس "عمر"، كل توتر وخوف، وزاد من شعوره بالأمان.

بعد أن تناول الجميع الطعام، طلب "محمد" من "مالك" أن يصطحب "عمر" إلى غرفته ليرتاح من عناء السفر.

وفي اليوم التالي...

اجتمع "محمد" ب"عمر" في غرفة المكتب وحدهما، وبدأ يتحدث معه.

"عمر":

- ها يا مولانا، كلنا وارتحنا وكله تمام، إيه بقى الشغل اللي هاشتغله؟

نظر إليه "محمد" طويلاً وقال بهدوء:

- لقد كان استنتاجك صحيحًا، أنا حقًّا أعرف والدك!

"عمر" بضجر:

- يا عم فُضنا من دي سيرة، مانا قلتلك مش عاوز أعرف حاجة.

"محمد":

- ألا تريد أن تعرف أنَّ أمك... كانت أختي؟

"عمر" بذهول:

- أختك؟ يعني انت...؟!!

"محمد" بتأكيد:

- نعم، أنا خالك أخو أمك!

قال "عمر" وهو يغالب توتره بضحكة ساخرة:

- هأ هأ... إيه! جري إيه يا مولانا؟ انت هاتسوق فيها ولا إيه!

خالي إيه وبتاع إيه؟

لا. أنا محبش اللعبه دي، عاوز تلفني بكلمتين وتبلعني بلقمة واحدة؟

لا دانتا ما تعرفنيش، دانا ابن سوق ومحدش يضحك عليا!!

صمت "محمد" طويلًا، ثم أخرج من درج مكتبه صورة قديمة، وأعطاها "عمر"، وهو يقول:

- انظر إلى هذه الصورة، وتأمل وجوه مَن فيها.

تأمل "عمر" الصورة مليًا، ودهش تمامًا عندما وجد أحدهم يشبهه كثيرًا،

رفع عينين ملؤهما التساؤل والحيرة إلى "محمد".

"محمد" بهدوء:

- هل لاحظت الشبه الكبير؟

إنه هو!!

هزّ "عمر" رأسه برفض وعناد وهو يقول:

- شوف، أنا ممكن أصدق أي حاجة، ممكن حتى أصدق لو قلتلي اني ابن الدكتور" صابر"... إنما اللي انت بتقوله ده... مش ممكن يدخل دماغي أبدًا،

أنا لا ابن الراجل ده، ولا أنا من البلد دي!!

أنا "عمر"... "عمر الديب".

اقترب "محمد" منه وقال بتفهم:

– الدكتور "صابر" ليس والدك، لكنه أنقذ حياتك، ولم يكن باستطاعته أن يقول لخادمته أن اسمك هو...

("عمر ديساروف")

لم تكن لتستوعب ذلك، أو يستوعبه أي من الذين حولها!

لذلك أطلق عليك "عمر الذئب"

وضع "محمد" يده على كتف "عمر" بقوة ونظر في عينيه مباشرة وهو يكمل:

– ولم يكذب الرجل، نعم... أنت حقًّا ذئب!!

ذئب شيشاني!!!

اتسعت عينا "عمر" بخوف، وسقط قلبه في قدميه!

***

(2)

(لا، لا مستحيل)

هتف الأسير بغضب:

– لن تنالوا ما تريدون أبدًا.

لن تستطيعوا العودة أبدًا، سنسحقكم سحقًا!

لسنا وحدنا هذه المرة، فالجميع يؤيدوننا.

القائد بصوت مخيف:

– نعم، تحالف اللصوص الجبناء، تغضون الطرف عما يفعلونه هناك، ليغضوا الطرف عما تفعلونه هنا!

والمصلحة مشتركة:

القضاء علينا جميعًا هنا وهناك.

الأسير بتكبر وغرور:

– هل علمتم الآن أنكم أضعف منا بكثير؟

القائد بسخرية لاذعة:

– لازلتم تكررون نفس العبارات الهزيلة المعتقة، يبدو أنكم تكذبون الكذبة ثم تصدقونها، أليس لديكم جديد تقولونه؟

ألم تصلكم نتائج المعارك التي خضناها ضدكم حتى الآن؟ ألا تعرف أعداد القتلى والجرحى من جانبكم؟ أم أنكم تخدعون قادتكم كما تخدعون شعبكم؟

أم أنَّ قادتكم هم الذين يخدعونكم، ويوهمونكم بالنصر المنتظر؟

صرخ الأسير بمقت شديد:

– أنتم شرذمة ضئيلة وسنسحقكم سحقًا بأحذيتنا، تمامًا كالحشرات.

ضحك القائد ضحكة قصيرة متهكمة:

– نعم كما كنا منذ سنوات ليست بعيدة، وظل الوحش المرعب يردد بصوته الجهوري الأجوف، بأنه سيسحقنا.

وسبعة آلاف من جنودكم محاصرين في العاصمة، يأكلهم اليأس،

ليعودوا في النهاية إلى أحضان أمهاتهم، وسراويلهم مبتلة من الرعب، مخلفين وراءهم أسلحتهم وعتادهم، وحتي أحذيتهم!

نهض واقفًا ونظر في عيني الجنرال الصامت وهو يرتجف غضبًا، وأكمل ببرود:

– فلتستمتع بقوتك في سجننا أيها الجنرال، وأنت تنتظر قادتك المغاوير ليبادلوك برجالي!

وسنرى مَن منا يستطيع الصمود أكثر...

سنظل نقاتل ونقاتل حتى ترضخوا وتأتوا إلينا صاغرين،

ثم أردف بلهجه ذات مغزي:

– كما حدث من قبل!!

رحل القائد، وتركه يغرق في بحور من المشاعر المرتبكة، والأعصاب المحترقة.

***

مضت فترة طويلة من الصمت، إلى أن استطاع "عمر" أخيرًا أن ينطق:

- شـ... شـي... شيشان؟!

أنا! من الشيشان؟!!

أومأ "محمد" ببطء وهو يقول:

- نعم أنت ابن "خالد ديساروف"، أعظم مجاهد شيشاني عرفته في حياتي كنت وأبوك أصدقاء وإخوة في الجهاد، وأقارب أيضًا، فزوَّجتُه من أغلي إنسانة على قلبي... أختي "خديجة"

تنهد "محمد" بعمق وهو يقول:

- كان والدك طبيبًا، عرفني على صديقه الطبيب "صابر عبد التواب" الذي جاء إلى هنا في بعثة طبية تابعة للجنة الإغاثة الإنسانية المصرية، واستضافه "خالد" في منزله عدة أشهر، كنا فيها كأعز الأصدقاء، حتى قامت القوات الروسية بمهاجمة العاصمة... جروزني

فاستدعى مدير البعثة الطبية الدكتور "صابر" وأبلغه بضرورة الرحيل الفوري عن العاصمة، فعاد مسرعًا ليودع "خالد"، لكن...

اتسعت عينا "عمر" إثارة، وقال متعجلاً "محمد" ليعرف ما حدث:

- لكن إيه؟

أكمل "محمد" وقد كسا صوته حزنٌ عميق:

- وجد البيت محطمًا، وجميع مَن فيه قتلى، فقد كان الجنود الروس يبحثون عن أبيك، وقدّر الله أن يكون موجودًا في البيت في هذا الوقت.

لكن، سبحان الله!... استطاعت أمك أن تحميك وأنت رضيع، فأخفتك في مخبأ عجز الجنود عن الوصول إليه، وبقيتَ نائمًا حتى رحلوا.

وعندما وصل الدكتور "صابر" وسمع صوت بكائك، وعثر على مخبئك، لم يدرِ أين يذهب بك، والبلد كلها في حالة من الجنون والفوضى؟

أخذك معه على متن الطائرة المغادرة، وأدخلك إلى مصر بطريقة لا يعلمها أحد غيره.

ويبدو أنه كان يعلم مسبقًا أنه سوف يُعتقل، فتركك عند خادمته الأمينة

ضاقت عينا "عمر" بشك:

- يا سلام!!

وإزاي عرفتوا إني سافرت على مصر؟

- ترك لي الدكتور "صابر" رسالة مع أحد معارفي، الذين كانوا يرافقون البعثة الطبية.

"عمر" غير مصدق:

- وسبتوني سبعتاشر سنة؟!

"محمد" بأسى:

- الاجتياح الروسي لم يترك أخضرَ ولا يابسًا!

لقد غادر المجاهدون جروزني إلى الجبال تاركين كل شيء.

ودارت معارك طاحنة لاستردادها، ولم يكن باستطاعتنا ترك مواقعنا كجنود والذهاب لأي مكان، ولا يمكن أن نحضرك إلى هنا وسط أتون الحرب المشتعلة، فقد كنتَ صغيرًا للغاية!

وبعد أن أخرجنا الروس من جروزني، لم يكن معنا ما يكفي من مال، يغطي تكاليف الرحلة إلى مصر وإعادتك إلى هنا.

ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي فُرض علينا، والتحرشات الروسية المستمرة، وتهديداتهم بالاعتداء علينا.

والآن تغيرت الظروف، أصبحتَ رجلاً وخرج الروس من جروزني من بضعة أشهر فقط، وعادت الحياة تسير...

ابتلع "عمر" ريقه بصعوبة وصمت طويلًا، يحاول استيعاب ذلك الكم الهائل من المفاجآت، ثم نظر إلى "محمد" وقال:

- وانتوا عاوزين مني إيه دلوقتي؟! أنا مش فاهم!!

"محمد" بود:

- نحن أهلك، يجب أن تعيش معنا هنا في وطنك.

انتفض "عمر" من مكانه، وقال في ثورة:

- فين؟ هنا؟ أنا أعيش هنا؟!!

"محمد" بصرامة:

- لقد وافقتَ من قبل، هل تذكر؟

"عمر" بانفعال:

- لا، دا كان زمان، لما كان فيه شغل وفلوس وميه بتجري، إنما انت عاوزني أعيش هنا؟ وسط البرد والتلج والحرب؟!

وفي بلد ما اعرفهاش، وسط ناس ماعرفهمش ولا أعرف بيرطنوا بأنهي لسان!!؟

لا يا عم... أنا مروح بلدنا، ومتشكرين قوي على واجب الضيافة!!

"محمد" بغضب:

- هؤلاء الناس هم أهلك، وأنت منهم، أنت هنا عزيز كريم بينهم.

زفر بضيق وهو يكمل:

- أفهم تمامًا مشاعرك، لقد ملأ الوهن قلبك، استسغت الحياة تحت الشمس الدافئة، واستطعمت الأمان والراحة، وأصبحا همك الأكبر، حتى لو ضحيت في سبيلهما بنخوتك ورجولتك، وابتلعت الذل والعار لتنعم بالدنيا

ضغط أسنانه بقوة، وهو يكمل بغضب مكتوم:

- لن أسمح لك أبدًا!!

أهل هذه البلاد لا يتنازلون عن أبنائهم مهما حدث!!

انفعل "عمر" بشدة، وأخذ يصرخ:

- محروقة بلدكوا عاللي فيها، فاكرني هاقعد هنا؟! لا، فايتهالكوا مخضّرة، أنا مش ابنكوا، أنا ابن حرام...

سامع؟... ابن حرام!!

فجأة، اصطدم "عمر" بإعصار غاضب عنيف...

انقض "محمد" عليه بقبضته ليكسر أنفه ويُسقطه أرضًا بعنف!

فيبدأ "عمر" بالصراخ والعويل، فيزداد غضب "محمد"، ويسحبه من ملابسه، ويلكمه بعنف.

أتى كل مَن في البيت على صوت "عمر"، لينقذوه من "محمد"

وحالت زوجته بينهما لتمنعه من ضرب "عمر"، وأخذ "مالك" يساعد "عمر" على النهوض.

وصرخ "محمد" بغضب مخيف:

- إياك أن تنطق بهذه الكلمات أمامي،

إياك أن تسبَّ أباك أو أمك وإلا قتلتك!

ثم استعاد بعضًا من هدوئه وكسا صوته الحزن وهو يقول:

- لن تفهم أبدًا ماذا يعني أن تفقد أغلى الأصدقاء!!

***

في الأيام التالية...

استقر الحال ب"عمر" في بيت خاله، ولم تدخر العائلة جهدًا لإشعاره بأنه في وطنه.

كان الجميع يتعامل معه بلطف وحنان، بداية من السيدة الطيبة زوجة "محمد" التي كانت تمرضه وترعاه، و"مالك" الظريف الذي كان يحاول التخفيف عنه بكل وسيلة، إلى "زهرة" الرقيقة التي كانت تسأل عنه من وقت لآخر...

حتي الصغير "خالد" كان يحبه.

لكن "عمر" كان لديه شعور دائم بالغضب والتمرد، تزداد حدته ويظهر جليًّا كلما رأى خاله "محمد"، أو احتك به.

دخل "عمر" غرفة المعيشة بخطوات ملولة بطيئة، فوجد العائلة كلها هناك:

الأب والأم والصغيران يشاهدون التلفاز، و"مالك" يجلس إلى منضدة في أحد أركان الغرفة يستذكر دروسه، و"زهرة" تجلس في الركن الآخر تقرأ.

اتجه "عمر" إلى المنضدة التي يجلس إليها "مالك" وجلس على مقعد أمامه.

"مالك":

- مرحبًا "عمر"، سأنهي دروسي وأخلو لك حالًا، كيف حال أنفك؟

"عمر" بغيظ:

- اسأل أبوك... يا ستار، إيه ده؟

تصدق بالله، أنا كلت عُلق بعدد شعر راسي، وانضربت كتير وقليل إلا أبوك... ده عليه إيد مرزبة! شايلها ازاي دي؟!!

ابتسم "مالك" وهو يقول بمرحه المعتاد:

- أبي مجاهد، ويجيد فنون القتال.

زفر "عمر" بضيق وملل:

- أف، إيه الملل ده!! معندكوش هنا حاجة نتسلى بيها؟

"مالك" بمرح:

- اطلب أي شيء تريده!

"عمر" بصوت خافت:

- معاك سيجارة؟

"مالك" بدهشة:

- ماذا؟

"عمر":

- سيجارة!!

ابتلع "مالك" ريقه وقال بصوت منخفض هو الآخر:

- لا أحد هنا يدخن السجائر.

"عمر" بتأفف:

- طب مفيش كوتشينة!

"مالك":

- ماذا قلت؟ لا أستطيع فهم أغلب كلماتك.

"عمر" بضيق:

- يا بني هو أنا بتكلم عبري؟؟

كوتشينة يا بني، ورق، ورق...

"مالك" يهز رأسه بفهم:

- نعم. فهمت. لا أحد هنا يلعب الورق أيضًا!!

"عمر":

- يا ستار!!... انتوا عايشين ازاي؟!

"مالك" يبتسم:

- انتظر حتى أنهي ما في يدي وسأجد ما يسلينا.

أسند "عمر" مرفقه إلى المنضدة وأراح خده على كف يده وهو يتثاءب بكسل ملول، فوقعت عينه على "زهرة"، وهي تنهض من مكانها، لتتجه إلى المكتبة الكبيرة في آخر الغرفة، لتبحث عن كتاب، فالتفت وجهه خلفها، وأخذت عيناه تطاردها.

فجأة نهض "مالك"، وارتكز بمرفقيه إلى المنضدة، ومال بجزعه، واقترب من "عمر"، وامسك وجهه بين أصابعه، ونظر في عينيه مباشرة، وهو يقول بابتسامة مفتعلة:

- كن حذرًا، فبعض أنواع التسلية قد تكون خطيرة ومؤلمة للغاية!!

لوّح "عمر" بيده:

- خلاص يا عم آسف، انت هاتعلق لي المشنقة؟

رد "مالك" ببساطة:

- فقط أحببت أن أنبهك، ف"زهرة" ليست فتاة عادية!

ستفهم ذلك فيما بعد.

قال "عمر" بلهجة معتذرة:

- ماشي يا عم، مسموح بالكلام ولا ده كمان ممنوع؟

عاد "مالك" إلى مرحه بسرعة:

- ولم لا، إنها أختك كما هي أختي.

نهض "عمر" ببطء ونظر حوله ثم اتجه إلى المنضدة، التي تجلس إليها "زهرة"، التي شعرت به، فرفعت عينيها من الكتاب، وهي تقول بود،وابتسامة هادئة تزين شفتيها:

- مرحبًا "عمر"، كيف حالك؟

جلس "عمر" أمامها، وهو ينظر للكتاب الذي بين يديها:

- الحمد لله. إيه ده!! كل ده كتاب؟ إنتي بتذاكري ولا حد بينتقم منك؟!

تبسمت ضاحكة:

- لقد أنهيت دروسي منذ قليل.

"عمر" بدهشة:

- أمال بتعملي إيه بالكتاب ده؟

"زهرة":

- هذا كتاب تاريخ...

"عمر" بعجب:

- بتقري ده كله!!

"زهرة":

- بل أحفظه!!

"عمر" بذهول:

- ليه! مين اللي بيعذبك كده؟؟

يشير بإبهامه خلفه نحو "محمد" بتساؤل دون أن يتكلم!

"زهرة" ضاحكة:

- لا، ليس هو، بل أنا التي أريد ذلك... أريد أن أشارك في حفظ تاريخ هذا البلد

"عمر" ببلاهة:

- مش فاهم!! يعني إيه تحفظي كتاب عشروميت صفحة؟

إيه اللي يزنقك على كده؟

"زهرة" بهدوء:

- لقد قاربت على الانتهاء من حفظ ربعه، فالأمر ليس صعبًا كما تتصور. إن كانت هناك الإرادة والعزيمة

"عمر":

- ماشي. لكن مش هو مكتوب في الكتاب؟ والكتاب في المكتبة؟ بتحفظيه ليه؟

"زهرة":

– حتى أساعد في إنقاذه عندما يتكرر ما حدث في الماضي.

***

(إنهم يحرقونها)

قال القائد بألم شديد وهو ينظر هناك بعيدًا من خلال المنظار المكبر ثم ترك المنظار وجلس مستندًا إلى صخرة وارتسم على وجهه الغضب ممزوجًا بالألم وردد ثانية:

– إنهم يحرقونها...

"أحمد" بغضب:

– أصبحوا كالكلاب المسعورة منذ اختطفنا جنرالهم

"جوهر":

– هزيمتهم الفادحة في معركة (دبيورت) أشعلت جنونهم. لقد قُتل منهم أكثر من ثمانمائة، خلاف الآليات والأسلحة التي غنمناها منهم. لهذا يصبون حقدهم وغضبهم على جروزني.

القائد:

– سيدمرونها عن آخرها إن لم نتصرف بسرعة

فإن أحرقوها أو دمروها، فهي لا تهمهم في شيء!

"جوهر" بهدوء:

– سوف يتوقفون قريبًا...

القائد بغضب:

- لن يتوقفوا إلا عندما ترتوي نزعتهم السادية، لن أقف مكتوف اليدين وأتركها تحترق.

لن أتركهم يدمرونها، أبلغ بقيه الكتيبة بالاستعداد.

ارتسمت في عينيه نظرة مرعبة وهو يكمل:

- سيكون الرد مُزلزلًا.

***

(مش فاهم!)

قالها "عمر" بضجر شديد!

مالي أنا ومال "إيفان الرهيب" والشيخ "منصور" ولا "شامل" ده كمان؟

تنهدت "زهرة"، وفكرت قليلًا ثم قالت:

- حسنًا سأحاول أن أشرح لك بطريقة مختلفة:

نحّت الكتاب جانبًا، وأحضرت من المكتبة رقعة شطرنج، رصت عليها القطع بطريقة معينة، و"عمر" يراقبها باهتمام شديد، وبعد قليل انضم إليهما "مالك"، بعد أن أنهي ما في يده، وأخذ يستمع ل"زهرة" بشغف.

"زهرة":

- القطع البيضاء الكثيرة تمثل روسيا، والسوداء تمثل المقاومة الشيشانية، وهي على الرغم من قلتها العددية، أمام الأسلحة والإمكانيات الروسية، إلا أنها لم تهدأ أبدًا في أي فترة من الفترات، على مدار التاريخ.

قدمت قطعة سوداء للأمام وهي تقول:

- (الشيخ" منصور أوشورما" وحد العشائر الشيشانية.

(جمعت بيديها القطع السوداء كلها معًا)

وأعلن الجهاد ضد الروس... لكنه هُزم في معركه نهر السونجا واعتقل ومات في السجن عام ١٧٩٣

(أسقطت القطعة السوداء، ثم أزاحتها من الرقعة، وقدمت قطعة أخري)

ثم ظهر الإمام "شامل" وأسس دولة إسلامية في الشيشان وداغستان معًا. (رسمت دائرة وهمية بإصبعها، حول القطع السوداء)

وهو من أعظم العلماء المسلمين المجاهدين، الذين نعتز بتاريخهم.

التفت حوله قبائل الشراكسة والشيشان، وكل علماء القوقاز والتركستان، وقاد حرب استنزاف في شعاب المنطقة ووديانها وجباله، استمرت ثلاثين سنة، واستنزفت قوى اثنين من القياصرة هما "نيقولا الأول" (١٨٢٥ –١٨٥٥ م (و"ألكسندر الثاني" (١٨٥٥ –١٨٨١م)

لكنها انتهت بهزيمة المقاومة عام ١٨٦٤ م، ووقع الشيخ المجاهد في الأسر.

(أسقطت القطعة الثانية، وإزاحتها خارج الرقعة).

"عمر" بدهشة:

– ومات في السجن؟

"زهرة" بجدية:

– بل أعدم.

وتعتبر هذه الثورة الإسلامية، أعظم ثورة في تاريخ صراعنا مع روسيا القيصرية.

لكنها للأسف لم تمتد طويلاً، فالصراع دائمًا كان بين شعب ضعيف الإمكانيات، وامبراطورية تملك إمكانيات كبيرة، وتتلقى الدعم من القوى المجاورة.

وبعدها بخمس سنوات فقط، قام الروس بقتل أربعة آلاف شيشاني في منطقة سالي، محاولين إخماد الانتفاضة، لكن الانتفاضة لم تهدأ أبدًا.

وعندما ظهر الحاج "أذن" (قدمت قطعة جديدة)، لم تمض ثمان سنوات حتى أعلن إمارة شمال القوقاز.

ولكن في عام ١٩٢٥ تم سحق الانتفاضة، وأعلنوا الحرب على الشيشان واتهموهم بالإرهاب والتمرد.

"عمر" بسخرية مريرة:

- بقى كل ده وماكانوش لسه أعلنوا الحرب؟!!

"زهرة":

- عام ١٩٤٤م أسس "ستالين" جمهورية الشيشان ذات الحكم الذاتي،

ولكنه في عام ١٩٤٥ غدر بهم، وقامت قواته بإبعاد ونفي قرابة مليون مسلم من ست جنسيات مختلفة، إلى سيبريا وكان نصفهم من الشيشان وداغستان.

"عمر" بدهشة شديدة:

- يا ربنا!!؟ مليون!! ونقلوهم ازاي دول؟

تغيرت لهجة "زهرة" وظهر الحزن عميقًا في صوتها:

كانوا، كانوا يقومون بشحن المواطنين، داخل عربات الشحن بالسكك الحديدية كالبهائم، ولم يرحموا المرضى ولا العجزة، ولا كبار السن.

وترك المبعدون خلفهم كل ما يملكون، من متاع وأغراض وأراضٍ، لتكون غنيمة للمستوطنين الروس القادمين إلى الشيشان.

ليس هذا وحسب، لقد مات نصف عدد المُبعدين في الطريق، من وباء التيفوس، نتيجة الازدحام الرهيب في عربات الشحن...

كما مات آخرون في معسكرات العمل في كازاخستان.

تلك الفترة كانت من أشد الفترات التي مرت علينا قسوة.

نظر "عمر" حوله، فوجد العائلة كلها قد التفت حول المنضدة، تستمع ل"زهرة"، وهي تحكي بأسلوبها الجذاب الشيق:

- وعاد الشيشانيون إلى بلدهم عام ١٩٥٧، ليجدوا أراضيهم أصبحت ملكًا لسكان جدد، شكلوا ربع عدد سكان الشيشان.

تنهد "عمر" بعمق وهز رأسه غير مصدق:

- علشان كده بتحفظي التاريخ؟

"زهرة":

- ليس هذا فحسب، بل أنا أريد أن أكون من حراس التاريخ.

الروس يحاولون باستماتة طمس تاريخنا، ومحو هويتنا. (ففي حرب القوقاز الأولى، قاموا بإلقاء كل المخطوطات والكتب في بحيرة (كازن إم)، لكن الإمام "شامل الكبير" أمر كل كبار رجال العشائر، بإعادة كتابة التاريخ وكل ما حدث، حتى يورث للأجيال.

ثم حاولوها ثانية أثناء حملة الإبعاد، لكننا أنقذنا مخطوطاتنا بأعجوبة.

ولن يكفوا عن ذلك، فسوف يعودون مرة بعد مرة. لهذا لا بد أن نستعد لهم، علينا أن نحافظ على تاريخنا بأرواحنا، فهو الكنز الثمين الذي نورثه لأبنائنا وأحفادنا من بعدنا، ولن ندعهم يسلبونه منهم.

أسند "عمر" ظهره إلى المقعد، وهو يتأمل رقعة الشطرنج بتفكير:

- رموا الكتب في البحر!! دول الروس ولا التتار؟!

ابتسمت "زهرة" وقالت:

- أظنك الآن قد بدأت تفهم.

***

في صباح يوم مشرق جميل، خرج "عمر" إلى الفناء على صوت "مالك" الشجي، فرآه يقطع الأخشاب، وهو يغني:

في ليله مولد الذئب خرجنا إلى الدنـــــيا

وعند زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائــنا

عندما شاهده "مالك"، قطع أغنيته وحياه بحرارة، وهو يلوح له

اقترب منه "عمر" وقال:

- بتعمل إيه؟

"مالك":

- أقطع الأخشاب وأجهزها لأضعها في المخزن للشتاء القادم.

"عمر" بدهشة:

- ليه يا بني كده، إنت غاوي شقا؟؟

عندكوا ولا ستين دفاية جوه، اللي بالكهربا واللي بالغاز!

"مالك":

- إننا نفعل هذا كل عام. تحسبًا لأي هجوم مباغت من الروس.

"عمر":

- يادي النيلة.، أنا كان إيه اللي رماني الرمية السودة دي!

ضحك "مالك" من كلماته وقال ببساطة:

- إن أول ما يقذفونه، هو شبكات الغاز والكهرباء والماء، ليصيبوا الحياة في البلاد بالشلل،

ويتركونا نعاني من البرد ونقص الماء والكهرباء.

"عمر" بضيق:

- يا ساتر... عاوزين يعذبوكوا!

قال "مالك" بمنتهى الثقة وعلى وجهه ابتسامة واسعة:

- وبالتأكيد لا!

بل يريدون إبادتنا!!

لم يعلق "عمر"، لكن أثر الصدمة ظهر واضحًا على وجهه.

"مالك" بمرح:

- أتريد أن تجرب؟

اقترب "عمر" منه، وامسك بآلة تقطيع الأخشاب، وحاول أن يقلد "مالك"، لكنه لم يكن بمثل مهارته، فأخفق مرتين.

ضحك "مالك" بمرح، وبدأ يعلمه كيف يقطع الأخشاب، وقضيا وقتًا ممتعًا معًا، يحوطهما الود والمرح، الذي كان يضفيه "مالك" بشخصيته المرحة.

وبعد أن انتهيا... اتجه "مالك" إلى المخزن، ليضع فيه الأخشاب.

أما "عمر" فقد جلس في الفناء يتأمل الباب الخارجي، ورأسه يمتلئ بأفكار كثيرة

(أعلم تمامًا ما يدور برأسك)

انتفض "عمر" عندما سمع الصوت الآتي من خلفه.

"محمد":

- مهما حاولت، فلن تستطيع الهرب!

تقدم "محمد" وجلس بجانبه.

"عمر" بضيق ساخر:

- ماكنتش عارف إني معتقل هنا!

"محمد" بهدوء:

- على العكس، أنت حر تمامًا، وتستطيع الذهاب إلى أي مكان في أي وقت، ولكن...

خذ حذرك، فالجو متوتر جدًّا هذه الأيام، ولن يسرني أن يعتقد الناس، أنَّ أحد أفراد عائلتي خائن أو جبان.

ولن أستطيع الدفاع عنك، إذا ما قرروا شنقك!

جحظت عينا "عمر" ووضع يده حول عنقه برعب.

أكمل "محمد" بهدوء، وهو يمد يده إليه بمفاتيح السيارة:

- إذا أردت الخروج، فمن الأفضل أن تأخذ السيارة، هل تجيد القيادة؟

أطبق "عمر" يده على المفاتيح، وهو يهز رأسه بالإيجاب، وعيناه تتأملان "محمد"، بمزيج من الدهشة والتحدي في آن واحد.

قال "محمد" وهو ينهض:

- احرص على ألا يضيع منك الطريق.

تركه ودخل المنزل.

وظل "عمر" جالس يفكر في كلماته لبعض الوقت.

ثم نهض واتجه إلى السيارة، وفتح بابها.

("عمر")

التفت خلفه فوجد "مالك" و"زهرة"، قادمين من المنزل.

"مالك":

- هل ستخرج بالسيارة؟

هز رأسه بالإيجاب، فأكمل "مالك":

- هلا أوصلتنا في طريقك إلى السوق؟ تحتاج أمي لبعض المشتريات.

وصلت السيارة إلى السوق، ونزل منها "مالك" و"زهرة".

"مالك":

- يمكنك الذهاب إلى غايتك، سنتدبرنحن أمر العودة.

"عمر":

- أنا ماكنتش رايح في حتة، هالف شوية أتفرج على السوق، ونتقابل عند العربية.

افترق الثلاثة، وسار "عمر" متمهلًا، واقترب من أحد البائعين وقد التف حوله الناس، وأخذ يتأمل البضائع المعروضة، لكنه مال على البضائع فأسقط بعضها، وأخذ يلملم ما سقط بسرعة وارتباك، وهو يعتذر للبائع، الذي وقف بجواره يلملم بضاعته، وهو لا يفهم شيئًا مما يقوله "عمر".

سار "عمر" في طريقه وعندما ابتعد عن البائع، وضع يده في جيبه، واطمأن على ما فيه وهو يبتسم بخبث:

- حلو، كلها ست، سبع محافظ متختخة زي دي، ونرجع على بلدنا، آل "عمر ديساروف" آل!!

سار يصفر ويدندن:

وانا كل ما جول التوبة يا بويا... ترميني الماجادير يا عين

("عمروف")

التفت خلفه، فوجد "زهرة" تناديه من بعيد.

وعندما اقتربت منه، قالت ببساطة وهي تبتسم:

- أعطني الحافظة التي وجدتها!

"عمر" بارتباك:

- نعم؟!! أنهى حا... حافظة؟

"زهرة":

- لقد رأيتك وأنت تلتقطها...

من الأرض

قالت الكلمة الأخيرة بلهجة ذات مغزى خاص.

نظر إليها لحظات بصمت، ثم ضحك بمرح مفتعل، وقال:

- آه، شوف ازاي!! دانا كنت لسه هادور على صاحبها، علشان أرجعهاله.

قالت ببساطة وهي تبتسم:

- دع لي هذه المهمة.

سأقوم أنا بها حتى لا تقع في مأزق.

نظر إليها بدهشة واستنكار.

فأكملت مفسرة:

- إنها اللغة... لن تستطيع التفاهم معهم.

هز رأسه ساهمًا كما لو كان غير مقتنع بتبريرها، وأعطاها الحافظة.

فذهبت لتعيدها، وعندما عادت إليه قالت:

- "عمر"، ما رأيك أنْ أعلمك لغتنا، حتى يكون سهلًا عليك أن تتفاهم مع مَن لا يتكلمون العربية؟

رد "عمر" بحماس، وقد وجدها فرصة مثالية، للاقتراب من تلك المخلوقة الملائكية الجميلة:

- ماشي، بس فيه حاجة أنا مستعجب لها!!

إنتوا ازاي بتتكلموا عربي كده؟

"زهرة"، وهي تسير بجواره:

- لا تتعجب، لقد دخل الإسلام الشيشان قبل ألف عام، عن طريق التجار العرب، ونحن أهل هذه البلاد مستمسكون بإسلامنا.

القوقازيون عامة في مختلف الجمهوريات، قوم يعتزون بسمتهم القوقازي، كزيهم، عادتهم، لغتهم، الانتماء إلى أرضهم، وحبهم الشديد للإسلام، لكن وقوعهم تحت الاحتلال أكثر من أربعة قرون ونصف غيبهم كثيرًا عن الإسلام، في الوقت الذي نفذ فيه المحتلون الروس في العهد القيصري والعهد الشيوعي، خطة محكمة لمسخ هويتهم، وتذويبها وزرع العادات والأخلاق الذميمة في الشباب، ومحاولة تفتيت وحدتهم بإشعال الفتن بينهم، واستغلال تعددهم العرقي، الذي يصل إلى اثنين وسبعين قومية.

فهم أشبه بالقبائل، و يتحدثون أكثر من إحدى عشرة لغة...

لكن الروس لم يتمكنوا من تحقيق ما أرادوا !!

فنحن نحاول قدر ما نستطيع، الحفاظ على تقاليدنا وعاداتنا القومية ولغتنا العربية، ولهذا نسعى دائمًا إلى غرس العادات والتقاليد الإسلامية، في نفوس أبنائنا، ليشبوا رجالاً، ويحافظوا على هويتهم...

وهذا ما جعلنا نستطيع الصمود والمقاومة في عصر "إيفان الرهيب"... أول قياصرة روسيا.

تنهدت بحسرة وقالت:

- لقد مر علينا وقت، كنا فيه لا نتكلم ولا نكتب إلا العربية، وذلك عندما أعلن الحاج "أذن" إمارة شمال القوقاز، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية... وتوعد بالعقاب كل من ينسى اللغة العربية.

ونحن نسعي باستمرار، لبناء المدارس التي تعلم الدين واللغة العربية، ولا تنسَ أن أبي تعلم في الأزهر...

"عمر" بدهشة:

- يا نهار أبيض! إيه ده؟ دانتي موسوعة!

قالت باسمة:

- ظننتك ستشعر بالملل من حكاياتي...

ففي بعض الأحيان أثرثر كالمذياع... أظن أن هذا بسبب محاولاتي لحفظ كتب التاريخ، فقد انطبع أسلوب الكتب حتى في طريقة كلامي!

"عمر":

- بالعكس دانتي بتشرحي، وتبسطي المعلومة، ولا أجدعها مدرس تاريخ!

"زهرة":

- حقّا، أتمني أن أصبح معلمة للتاريخ في مدرسة إسلامية.

صمت "عمر" قليلًا ثم عاد يسأل:

- بس فيه ناس كتير هنا مابيتكلموش عربي!

"زهرة":

- بالطبع... نحن نحاول باستماتة الحفاظ على اللغة العربية جيلًا بعد جيل، ولكن هذا لا يعني أننا نفلح دائمًا.

ففي بعض الفترات، يكون الاحتلال طاغيًا، وأول ما يفعله هو محاولة القضاء على الدين والهوية، وأول خطوة لذلك هي القضاء على اللغة العربية.

تمامًا كما حدث أيام حملات الإبعاد، فعندما عاد المبعدون إلى بلدهم وجدوا الروس قد أغلقوا ثمانمائة مسجد، وأكثر من أربعمائة مدرسة لتعليم الدين واللغة العربية، وبعض المساجد حولوها إلى مراقص يشربون فيها الخمر،

وفرضوا اللغة الروسية، كلغة رسمية للبلاد، وجرموا استخدام اللغة العربية والتعليم الإسلامي، بل واقتناء المصاحف، فضلاً عن تجريم ممارسة الشعائر، واقتناء الكتب الإسلامية.

فمن كان يضبط لديه مصحف، كانوا يسجنونه.

"عمر" بصدمة:

- يا خبر أبيض!! حتى المصحف؟

وطبعا ماكنتيش تقدري تلبسي الحجاب!

قالت مبتسمة:

- لم أكن وقتها قد ولدت بعد، لقد تحسنت الأحوال كثيرًا عن الماضي.

رفع حاجبيه، وهز رأسه كمن فهم أخيرًا:

- آه، طب وإيه اللي حصل بعد كده؟

أضاء وجهها الجميل ابتسامة أمل:

- أتدري، إنّ ما حدث كان له أكبر الأثر، في تقويه الوازع الديني لدى الناس، وعادوا لاستكمال التعليم الديني بشكل أقوى، عن طريق الحلقات والدروس الخاصة، وفي الخفاء.

"عمر" بسخرية مريرة:

- الدنيا دي غريبة قوي!!

ناس مش عاوزه تتعلم حتى لو سقوها العلام بالمعلقة، وناس بتدفع حياتها وتتسجن علشان تتعلم!

"زهرة" بفخر:

- إن تاريخ هذه البلاد، غني جدًّا بالجهاد والنضال، من أجل الحفاظ على ديننا وحريتنا، وكانت...

توقفت "زهرة" عن السير، وظهر على وجهها تعبير غريب.

"عمر":

- إيه، فيه إيه! وقفتي ليه؟

قالت "زهرة" بارتباك:

- لا أدري! أشعر بشيء ما؟

"عمر" بتوتر:

- إيه؟ حصل حاجة؟

نظرت فجأة إلى السماء، وصرخت صرخة رهيبة:

- احـــــــــــــــــــــــــــــــــــذر!!...

***

(3)

(احـــــــــــــــــــذر)!!

(إنهم يضربون فوقنا مباشرة بالمروحيات)

صاح "جوهر"، وهو يجري باحثًا عن مكان، يحتمي به من القصف الروسي.

هتف "أحمد":

– أين القائد؟ أنا لا أراه!

هتف "جوهر" بدهشة:

– ما هذا؟... ماذا يفعل؟!!

هل فقد عقله؟! إنه يسير في منطقة مكشوفة تمامًا!

عجبًا... ألا يخشى على حياته؟

"أحمد" وهو يلهث من الانفعال:

– نصحناه كثيرًا، لكنه يرفض دومًا تجنب القصف القريب، وحتي إذا ما أصيب، لا يظهر ألمه أبدًا.

لم أر أحدًا في مثل تهوره!

"جوهر":

– انظر! إنه يواجه المروحية بصدر عارٍ!! ماذا يفعل؟

لا يمكن أن...

صرخ "جوهر" بعنف:

- سيقتلونه!!

***

عندما صرخت "زهرة"، لم يتخيل "عمر" أبدًا ما سيحدث بعدها!

لقد سمع صوتًا قويًا مرعبًا، أصابه بالفزع، فوقف جامدًا كالتمثال للحظات... إلا أن "زهرة" دفعته بيديها بقوة، ليجري ناجيًا بحياته.

في اللحظات الأولى، لم يفهم ماذا حدث...

لكنه شاهد الناس يركضون مذعورين، لا يعرفون إلى أين يتجهون، منهم من يفر هربًا بسيارته، ومنهم من يختبئ، يحسب أنه في مكان آمن، وآخر يجمع بضاعته، عله ينقذ بعضها من القصف، وفي لحظات خلا السوق من الناس...

وبينما "عمر" و"زهرة" يركضان، سمعا صوتًا ينادي عليهما.

التفت "عمر"، فوجد "مالك" يجري باتجاههما، وعندما وصل إليهما صرخ:

- بسرعة، إلى الملجأ، يجب أن نصل إلى الملجأ.

لكنه توقف، عندما شاهد سيدة عجوزًا، كانت تبيع في السوق، تحاول أن تجمع بضاعتها وتجرها وراءها، وهي تفر من السوق هربًا من الموت، إلا أن قدميها الضعيفتين، وكبر سنها، يعوقانها.

التفت "مالك" إلى "زهرة" وقال:

- خذي أنت "عمر" إلى الملجأ، وأنا سأساعد تلك العجوز.

انطلق يجري ولم يدع لهما فرصة للاعتراض.

قادت "زهرة" "عمر" إلى الملجأ الآمن من القصف، فارتكن إلى الجدار، وهو في حالة ذهول مما يحدث حوله.

لم يشعر بمثل هذا الرعب في حياته من قبل.

وكان كل دقيقة ينظر إلى "زهرة" الجالسة في ثبات، وهي تتمتم بآيات القرآن والأدعية، وكأنه يحاول أن يستمد منها الأمان.

بعد مدة ليست بالقليلة، هدأت الأصوات الرهيبة، وانتهى القصف...

وخرج "عمر" و"زهرة" من الملجأ، ومع أول خطوة له ارتد للوراء بصدمة من هول ما رأى!!

البيوت والمحال مهدمة، والقتلى والجرحى في كل مكان...

تقدم "عمر" ببطء وهو ينظر حوله بذهول تام!!

فجأة، انتفض بشدة واقشعر بدنه، وتسمر في مكانه، عندما وقعت عينه على جثة البائع، الذي كان قد سرق حافظته منذ أقل من الساعة.

كان الرجل ممددًا على الأرض جثة هامدة، وملقاة بجانبه حافظة نقوده، التي ردتها إليه "زهرة" مفتوحة، والمال يخرج منها!

لم يدر ماذا يفعل! فلقد شُل تفكيره وتجمدت مشاعره، كان هذا الموقف من أقسى المواقف، التي قابلها في حياته.

("عمر"... "عمر"... ساعدني)

أفاق على صوت "زهرة"... التفت إليها فوجدها منحنية على الأرض، تحاول إسعاف صبي صغير ينزف بغزارة.

حمل معها الصبي، واتجها إلى حيث تركا السيارة، تعجب "عمر" فالسيارة كانت سليمة على عكس ما كان يتوقع.

اتجها بسرعة لمستشفى الأطفال...

وهناك، أخذ منهما الطفل أحد الأطباء، وكانت المستشفى كخلية نحل كبيرة، الكل يجري ويعمل على إنقاذ المصابين.

وبدأ الجرحى بالتوافد بكثرة، لدرجة أن الأَسِرَّة لم تكفِ كل المصابين، فاضطروا لوضع بعضهم على الأرض.

وكان "عمر" من آن لآخر ينظر إلى "زهرة"، ويتعجب من قوة ثباتها وتماسكها، في مواجهة هذا الموقف الرهيب، لم تجزع، ولم تبكِ،

بل كانت تجري في أرجاء المستشفى، تساعد الممرضات، وعندما طلب الأطباء متبرعين لنقل الدم، كانت أول المتبرعات، عندها هبَّ "عمر" بدلًا منها.

كان هناك نقص كبير في الأدوية والأطباء، وأعداد المصابين في تزايد مستمر، حتى إنّ بعضهم كان يموت، قبل أن يستطيع الأطباء إسعافه.

طلبت "زهرة" من "عمر" مرافقتها، لشراء بعض الأدوية والمستلزمات الطبية، التي طلبها الأطباء من خارج المستشفى.

وفي السيارة، كان رأس "عمر" يدور فيه سؤال، لا يستطيع الخروج على لسانه:

- أين "مالك"؟ هل...؟!

***

الله أكـــــــــــبـــــــــــر!

الله أكـــــــــــبـــــــــــر!

هتف المجاهدون بسعادة بالغة!

والتفت "جوهر" إلى "أحمد" وصرخ بإعجاب:

فعلها الذئب، فعلها البطل، أسقطها بضربة واحدة !

التف المجاهدون حول القائد، الذي وقف ثابتًا، ووجهه خالٍ من أي تعبير، والمجاهدون يهنئونه بسعادة، وهو شارد كعادته، لا يرد إلا بكلمة واحدة: (الحمد لله)

كان عقله يسترجع تفاصيل ما حدث...

عندما بدأ القصف الرهيب بالمروحيات والصواريخ...

سار إلى منطقة مكشوفة، وهو يحمل فوق كتفه مدفعًا من طرازR. P. G فرآه قائد إحدى المروحيات وحيدًا، فظنه صيدًا سهلًا.

مال بالمروحية مقتربًا منه، لكن الذئب لم يتحرك أبدًا، بل نزل على إحدى ركبتيه، وبمنتهي الصبر والثبات أخذ يضبط مدفعه على كتفه، وقائد المروحية يقترب، وهو يضحك من ذلك المجنون المتهور، الذي يواجه مروحية، وهو راكع على إحدى ركبتيه.

فهو حتمًا لن يستطيع إصابة مروحية حربية تناور في الهواء!

صوّب الطيار سلاحه إلى الذئب، وهم بالضغط على الزر...

لكن الذئب كان الأسبق!

أطلق مدفعه بمنتهي الثقة والثبات، وفجر الطائرة إلى قطع صغيرة، أمام أعين الجميع!!

مما جعل باقي المروحيات تهرب، ظنًّا منها أنه كمين!

أفاق القائد من شروده، على أصوات زملائه وهم يهنئونه.

ولكنه أنهى الموقف بجملة واحدة:

- (وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى)

استعدوا...

لقد كشف العدو موقعنا، وسنضطر إلى تغييره.

***

ألقى "عمر" برأسه المثقل بالهموم والآلام على وسادته، وقد عاد إلى المنزل، بعد أن انتهى أشد وأقسى يوم مرّ به في حياته.

أخذ يحدق في السقف وهو يشعر بألم الدنيا يجثم فوق صدره

ثم ترك لدموعه العنان، عندما اطمأن أنه لن يسمعه أحد، و قد ظلت دموعه حبيسة طوال اليوم...

شيئًا فشيئًا، تحولت قطرات الدموع إلى أنهار، وتحول البكاء إلى نحيب،

لم يدرِ كم مرّ عليه وهو يبكي، حتى ربتت يدٌ حانية على كتفه، وسمع صوت "مالك" - الذي ظنه مستغرقًا في النوم - يواسيه:

- "عمر"، اهدأ يا "عمر" ما بك؟!

كان "مالك" قد عاد إلى المنزل في وقت متأخر، بعد عودة "عمر" و"زهرة" بمدة طويلة، كاد فيها القلق عليه يقتل كل من في المنزل...

خاصة أمه.

وعندما سألوه أين كان، أجاب:

- كنت أساعد في نقل الجرحى، إلى المستشفى العسكري.

أما الأب "محمد"، فقد ترك البيت منذ الغارة الروسية، ولم يعد!

التفت "عمر" إلى "مالك" وهو يبكي، وقال بكلمات متقطعة:

- أنا... أنا... مش عاوز أفضل هنا... أنا عاوز أرجع مصر. أنا لازم أمشي، مكاني مش هنا...

"مالك" بتعاطف:

- اهدأ يا "عمر"، لقد مرَّ كل شيء بسلام.

أتريد أن تتركنا بعد أن أحببناك؟ لقد كنت أعتبرك صديقي!

"عمر":

- "مالك"، لو بتحبني صحيح خرجني من هنا.

أنا مش عاوز أموت، عاوز أرجع على مصر. لو صاحبي صحيح ساعدني

فكر "مالك" قليلًا:

- ولكني لا أعرف كيف أساعدك؟

"عمر":

- فلوس، عاوز فلوس علشان أقدر أرجع مصر.

ظهر على وجهه الإحباط:

- ليتني أستطيع مساعدتك، فما لدينا من مال لن يكفي لإعادتك إلى مصر.

"عمر":

- إزاي بس؟! انتوا مش فقرا. وبعدين، طب ما أبوك راح مصر قبل كده، اشمعني دلوقتي؟

"مالك" بتردد:

- لا أدري ماذا أقول، ولكن سأخبرك...

منذ أن أعلن الرئيس الراحل "جوهر دودايف" استقلال البلاد عن روسيا لأول مرة عام ١٩٩٤، وهم يشنون علينا حربًا شعواء لم تتوقف إلى الآن، استنزفتنا استنزافًا!

وكلما دحرناهم ورفعنا راية الاستقلال، عادوا من جديد، حدث ذلك مرات عديدة.

وكلما أخرجناهم من أرضنا، وعقدنا معهم الاتفاقيات والعهود بعدم الاعتداء، إلا أنهم يخرقون بنود الاتفاقية ويغيرون علينا من وقت لآخر كما رأيت اليوم.

لم يعترفوا أبدًا باستقلالنا، ويحاولون باستمرار اغتيال قادة الجهاد والزعماء، الذين يختارهم الشعب بالانتخابات الحرة.

ويحاولون باستمرار فرض حكام خونة، موالين للحكومة الروسية، مثلما اغتالوا الرئيس الشيشاني السابق "سليم خان بندر بابيف". وغيره كثير...

وهم لا يسمحون لنا بفتح مطار العاصمة، ويمنعوننا من التعامل مع العالم الخارجي، حتى لا نتصرف في مواردنا الطبيعية من نفط وغاز.

هتف "عمر" بضجر:

- يا عم أنا مالي ومال الكلام ده؟

قاعد تبرم في دماغي من الصبح بكلام مش فاهمه!

أنا عاوز فلوس أرجع بيها على مصر.

"مالك":

- هذا ما أحاول أن أخبرك به، البلد كلها في حالة ارتباك اقتصادي، وما معنا من مال لن يكفي لإعادتك إلى مصر.

صمت قليلاً ثم قال بعد تردد:

- لقد صرف أبي كل ماله لإحضارك إلى هنا، وليس هذا فحسب، لقد باع أرضنا، واستدان، ليدبر مصاريف رحلة الذهاب والعودة، قد ترى تصرفه غريبًا...

لكنه شيشاني!

لهذا يقول المثل الشيشاني: (من الصعب أن تكون رجلًا شيشانيًا، لما في ذلك من أعباء يجب على الرجال تحملها)

إن أبي يضع مبادءه وعقيدته قبل نفسه وعائلته.

"عمر" بذهول:

- ليه؟ بيعمل كل ده ليه؟! وهو لا عمره شافني ولا يعرفني؟

"مالك":

- ألم تدرك بعد! لأنك ابن أخته وأعز أصدقائه. وليس هذا فحسب، والدك أحد أبناء عمومتنا.

لهذا لم يكن أبي ليتركك بعيدًا عنا، فأنت أحد أفراد هذه العائلة.

"عمر" بدهشة:

- طب وانتوا! ازاي سبتوه يبيع أرضكوا؟

"مالك" وهو يبتسم ابتسامته الودودة البشوشة:

- سألنا فردًا فردًا، حتى "خالد" الصغير، وأجمعنا كلنا على ضرورة إحضارك إلى هنا لتعيش معنا.

صمت "عمر" تمامًا ولم يستطع أن يرد، كانت الدهشة تملؤه من تلك العائلة الغريبة، التي تضحي بمالها وتستدين، من أجل شخص لا تعرفه ولم تره من قبل.

"مالك":

- فيم تفكر؟

"عمر" بيأس:

- أمي وحشتني قوي

"مالك" متسائلًا:

- أمك خديجة؟

"عمر":

- أمي فتحية، أمي اللي ربتني

زمانها دلوقتي عاملة عمايلها وقالبة البيت محزنة!

أصلها حنينة قوي!

أدرك "عمر" أخيرًا أنَّ عودته إلى مصر ستتأجل إلى ما شاء الله.

هذا إذا ما استطاع تدبير المال اللازم لرحلة العودة.

قال "مالك" بود خالص:

- "عمر"، لقد أحببتك كثيرًا وأعتبرك صديقي.

تنهد بأسى وهو يكمل:

- منذ استشهد أخواي وأنا أشعر بوحدة رهيبة، لم يزلها سوى وجودك، أحتاج لمن أتحدث معه ويسمعني، لقد تغير أبي كثيرًا، ولم يعد لديه وقت ليسمعني.

قال "عمر" بدهشة، بعد أن استطاع "مالك" إخراجه، من حاله الانهيار التي اجتاحته:

- هو انت كان ليك أخين وماتوا!

هز "مالك" رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- "خالد" و"شامل"، استشهدا أثناء الاجتياح الروسي للشيشان، وقام أبي بدفنهما في مقابر الأسرة، بجوار أمي.

قفز "عمر" جالسًا على الفراش وقال بدهشة عارمة:

- أمك!! هي مش اللي جوه دي أمك!

"مالك":

- إنها زوجة أبي، تزوجها بعد موت أمي

لقد استشهدت أمي في غارة مشابهة كالتي رأيتها اليوم!

"عمر" بذهول:

- حاجة غريبة! بس دي بتحبكوا قوي!

دي كانت هاتتجنن عليك لما انت اتأخرت!

"مالك":

- بالطبع، وأنا و"زهرة" نحبها كثيرًا، فهي في مكانة أمي!

"عمر" ومازالت الدهشة تلفه:

- وأبوك برده هو اللي دفنها؟!

"مالك":

- نعم، ولكن دعك من هذا الآن، أريد أن أريك شيئًا.

نهض "مالك" من فوق فراش "عمر"، واتجه إلى فراشه، وأخرج من تحته صندوقًا كبيرًا، أخرج منه مجموعة لوحات، قربها من "عمر" وقال:

- انظر، ما رأيك؟ هل تعجبك؟

تأمل "عمر" اللوحات المرسومة وقال:

- انت اللي رسمتها؟

"مالك" بابتسامة واسعة:

- نعم، هل هي جميلة؟

"عمر" بدهشة وهو يتأمل في اللوحات ويقلب فيها:

-دي بيوت! حلوة، بس شكلها غريب شوية.

عاد "مالك" بظهره إلى الوراء، وعقد كفيه خلف رأسه، مستندًا إلى ظهر الفِراش بجانب "عمر"، وعيناه تسافران بعيدًا، وابتسامة حالمة تملأ وجهه:

- يومًا ما سيكون لدي شركة معمارية كبيرة، وسأقوم بتصميم بيوت، ستحدث انقلابًا في الطراز المعماري، في القوقازبأكمله!

هتف "عمر" وهو ينظر إليه بدهشة:

- الله يخرب بيتك! دانتوا عيلة عاوزة المورستان، انت مش دريان احنا كنا فين النهارده؟!

وسط الموت، بين الجثث والأنقاض، وانت بتحلم انك تبني بيوت؟

ابني يا خويا ابني،

وبصاروخ واحد يطربقوهالك على اللي فيها!

"مالك" ببساطة شديدة:

- يدمروها، وسأبني غيرها!

"عمر":

- يا ستار عليك، دانت كلح، إيه يله البرود اللي انت فيه ده؟!

اعتدل "مالك" وقال بحماس:

- أنت لا تفهم، فعندما أصمم بيتًا أكون معجبًا به، ولكن بعد فترة أملُّه، وأصمم أجمل منه، فأنا أعشق التجديد.

وعندما أستطيع أن أحول تلك الرسومات إلى حقيقة، ستكون فرصة حقيقية، لإثبات فني ومهارتي في التجديد والابتكار.

"عمر":

- يا عيني عالفلسفة!

قلب في اللوحات التي أمامه:

- ودا إيه ده كمان، ده جامع!

انت عامل له صحن؟!

"مالك":

- نعم، يذهلني كثيرًا الطراز القديم في المساجد، وخاصة المساجد المصرية ذات السقف المكشوف.

ما أروع أن يصلي الإنسان تحت النجوم، وضوء القمر الهادئ الرقيق يتسلل إلى قلبه، جو روحاني لا مثيل له.

وإذا ما أحب الجلوس في المسجد للاعتكاف والتأمل، يقلب وجهه في السماء يتفكر في خلق الله.

بحث في الصندوق ثانية، وأخرج منه كتيبًا صغيرًا وقال ل"عمر":

- انظر، لدي كتاب هنا عن المساجد المصرية، فيه صورة لمسجد "عمرو بن العاص"

ومسجد "طولون"، إنه رائع. الوحيد الذي له مئذنة بسلم خارجي، تصميمه المعماري مذهل حقًّا!

ومسجد "محمد علي" شديد الروعة!

"عمر" بضجر:

– يا عم مانا عارف كل ده، وعايش طول عمري وسط الحاجات دي، بس المساجد دي كلها ليها صحن، يعني مكشوفة ودي بقى ماتنفعش عندكوا هنا وسط السقعة والتلج!

"مالك" بحماس:

– وهذا هو التحدي الحقيقي أن أقتبس الفكرة وأطورها وأبتكر فيها وأجعلها تتناسب مع بيئتنا.

أتعلم! فكرت أن أغطيها بقبة زجاجية!

"عمر":

– والله انت مجنون وهاتجنني معاك، بقي بتحلم انك تبني مساجد، والبلد في حرب!

"مالك" وهو يشرد بعيدًا ويقول بعزم:

– يومًا ما، سأبتكر أحجارًا من مادة مضادة للقنابل والصواريخ، وتتحمل أقسى الظروف.

سأبني بها المساجد، فأول شيء يستهدفونه المساجد!

نظر "عمر" إلى "مالك" بصمت وذهول، وهو يفكر في شخصيته العجيبة، التي تتحدي الدمار والموت، بكل هذا الأمل والتفاؤل.

***

أخيرًا

عاد "محمد" إلى أسرته وبيته، بعد عدة أشهر قضاها في معسكرات المجاهدين.

وأخذ ينظر إلى "مالك" و"زهرة" و"عمر" وأخذهم بين أحضانه، وكأنما يراهم لأول مرة.

لم يكن يصدق حقًّا أنهم نجوا من تلك المذبحة الرهيبة في العاصمة.

لقد أطلقت القوات الروسية صواريخ بعيدة المدى، وقصفت الطائرات بقذائفها المدنيين في الشوارع والأسواق.

وكانت الصواريخ تستهدف البيوت والمناطق المحيطة بالمستشفيات.

وقتل من جراء هذا القصف مائة من المدنيين، وجرح مائتان بعضهم مات لخطورة الإصابة وقلة الدواء، ودُمرت عشرات البيوت وعدة سيارات ((مذبحه تتكرر كثيرًا))

ولقد اتجه "محمد" إلى معسكرات المجاهدين، فور علمه بالقصف وحتى قبل أن يطمئن على أولاده، ليدبر معهم طريقة للرد على تلك الضربة الروسية الوحشية الغادرة، التي انتهكت الاتفاقيات والوعود الروسية بعدم الاعتداء.

طوال مده غياب "محمد"، لم يكن "عمر" يعمل شيئًا سوى التفكير.

التفكير في كل ما يدور حوله...

عجبًا... لقد ضبط نفسه يفكر!

لأول مرة يفكر بهذا العمق، لم تكن حياته السابقة تعتمد على التفكير، بل لم يكن لعقله أي دخل في مسار حياته منذ ولادته، وكان يتعامل مع عقله وكأنه غير موجود، أو أنه عضو غير قابل للعمل، ويترك لجوارحه العمل دون أدني تدخل من عقله!

كانت شخصية "محمد" الغريبة تثير فضوله، وتدفعه دفعًا للتفكير فيها حتى وهو بعيد.

وبرغم حنقه الشديد عليه وغضبه منه،

إلا أنه كان ينظر إليه على أنه رجل عجيب أتى من زمن آخر،

أو من عالم آخر، رجل يضحي بأي شيء وكل شيء بلا مقابل!

والأم الصابرة التي لا تشكو أبدًا، برغم ثقل المسئولية وضيق الحال على الجميع، وبرغم ترك زوجها لها لفترات طويلة.

لكنها تقف صامدة، تحمل البيت بلا كلل.

تربي أبناءها وأبناء زوجها، بكل حب وإخلاص ودون تفرقة.

أما "مالك"، فهو يصيبه دومًا بالجنون.

هو الوجه الآخر لشخصية والده، فهو عكسه تمامًا، متفائل لأبعد الحدود ضحوك دائمًا، ينثر المرح في كل مكان حوله، ولا يكف عن الغناء في أي وقت.

ويردد أغنية واحدة لا تفارقه أبدًا.

و"زهرة" الرقيقة الهادئة، عجيبة أخري من العجائب!

تحمل عقلاً أكبر بكثير من سنوات عمرها، ولديها قدرة عجيبة للتأثير في الآخرين وإقناعهم.

استطاعت إقناع "عمر" بتعلم اللغة الشيشانية وفي خلال عدة أشهر استطاع "عمر" إتقانها بشكل لا بأس به.

وكذلك بعض كلمات من اللغة الروسية، والتي كانت تتقنها "زهرة" بمهارة.

وعندما انتهت الدراسة وبدأت العطلة، كان "عمر" يقضي معظم وقته بصحبة "مالك"، وأصبح لدي "زهرة" المزيد من الوقت لتعلم "عمر" الكثير عن الشيشان وتاريخها.

كان "عمر" يجلس شاردًا عندما سألته "زهرة":

– فيم تفكر؟

"عمر":

– أبوكي ده غريب قوي!!

"زهرة ":

– لماذا؟

"عمر":

– والله مانا عارف، دا محارب ولا تاجر، ولا إمام جامع، ولا مدرس عربي؟

ابتسمت "زهرة" وقالت:

– إنه كل هؤلاء، فهو في الحرب مجاهد، وعند الصلاة إمام، وهو تاجر يكسب قوته من عمله بالتجارة، وهو معلم اللغة العربية لمن لا يعرفها.

– وازاي يمشي كده من غير ما يقول هو رايح فين؟! من غير حتى ما يطمن عليكوا؟

أجابه "مالك" ببساطته المعهودة وابتسامته البشوشة:

– لقد اعتدنا ذلك، في المرة السابقة غادر دون أن يخبر أحدًا، وغاب عنا عدة أشهر إنه لا يتأخر أبدًا عن الجهاد.

أبي شجاع للغاية، تربَّى في أحضان الذئاب.

"عمر" بدهشة:

- نعم؟! يعني إيه؟

ضحك "مالك":

- إنه تعبير دارج لدينا، نقوله إذا ما أردنا أن نصف أحدًا ما بالشجاعة.

أكمل بفخر:

- الشيشانيون مقاتلون أشداء أقوياء شجعان، ناهيك عن نبل أخلاقهم.

"عمر" بيأس:

- وإيه الفايدة من دا كله! هاتقدروا تغلبوا الروس! دول أقوي منكوا بكتير، مافيش حل للحرب دي إلا إنكوا تستسلموا.

أطرقت "زهرة" تفكر بعمق ثم قالت بصوت جاد:

- أفهم تمامًا ما تعني.

نهضت من مكانها، وأحضرت كتابًا من المكتبة، وقلبت فيه قليلًا ثم فتحته على صفحة معينة، وأدارته باتجاه "عمر" وقالت:

- أترى هذه الصورة؟ إنه علمنا، انظر إليه جيدًا!!



تأمل "عمر" الصورة باهتمام وهو يستمع إلى "زهرة" وهي تقول:

- اللون الأخضر يرمز إلى الإسلام.

"عمر" بتساؤل:

- السلام؟

هزت رأسها بالنفي وقالت مصححة:

- الإسلام!

واللون الأبيض يرمز إلى الشهادة واللون الأحمر يرمز إلى كفاح الآباء والأجداد في سبيل الحرية.

وفي الوسط صورة الذئب ينظر إلى القمر.

أتعلم لِمَ اخترنا الذئب رمزًا لنا؟

هز "عمر" رأسه بالنفي... فأكملت:

الذئب ليس أقوي الحيوانات، لكنه من وجهه نظرنا الأنبل، فهو لا يقاتل إلا الأقوياء، وليس كالأسد والنمر الذي يفترس الضعفاء.

لذلك، إذا ما أردنا وصف أحدهم بالشجاعة، نطلق عليه ذئبًا!

بدا على وجهه عدم الاقتناع فقالت:

- ما زلت لا تصدق؟

هل تذكر ما قلته لك عن معسكرات الإبعاد الجماعي، والسجون في وسط آسيا؟

برغم قسوة الظروف وقتها وذل الأسر والنفي، إلا أنّ شيشانيًا واحدًا لم يستسلم، ولم يخضع للحكم الروسي، بل انهم كانوا يظهرون دائمًا عداءهم للروس بمنتهى الشجاعة، ليس هذا كلامي، بل كلام الكاتب الروسي

(سولجنستين) الذي عاصر ما فعله "ستالين" بالشيشان في معسكرات الإبعاد الجماعي، والسجون في وسط آسيا. لقد قال حرفيًا: (لك أن تكسر ظهورهم، لكن أحدًا لا يستطيع أن ينال من روحهم المعنوية، فقد ظلت نفوسهم نمرًا مُقيدًا بالسلاسل، لأنهم كانوا من الشيشان، الذين لا يرهبون الموت)

تنهدت بعمق وأكملت بصوت هادئ لكنه يشتعل بالحماس والفخر:

– إننا قد نُهزم، لكننا لا نستسلم أبدًا، فالحرية لدينا أغلى من الحياة! وخير شهادة، هي ما يشهد بها الأعداء.

صمت "مالك" و"عمر" تمامًا ليستمعا إلى حديث "زهرة" الممتع "زهرة":

– قرأت مره عن مخطوط روسي شهير، عمره أكثر من مائة وثمانين عامًا. وهو عبارة عن رسالة بعث بها الجنرال "روس أرمولوف"، إلى قيصر الكريملين "ألكسندر الأول" عام ١٨١٨، يبرر فيها سبب الخسائر الكبيرة للقوات الروسية ضد الشيشانيين، ويتعهد بأنه سوف يبيدهم عن آخرهم يقول فيها:

((وأؤكد لكم يا فخامة القيصر العظيم، أنه لن يرتاح لي بال طالما بقي شيشاني واحد على قيد الحياة، لأنَّ هذا الشعب المشؤوم بإمكانه تحريك روح الثورة وإشعال شرارة الحرية، حتى بين أكثر الناس تفانيًا وإخلاصًا للامبراطورية الروسية، وربما داخل الكريملين ذاته))

تنهدت وهي تقول بعزة:

– "عمر"، نحن نؤمن تمامًا أننا سننتصر، حتى لو لم نر النصر بأعيننا فسيراه من بعدنا.

لكننا في النهاية سننتصر.

ظل "عمر" يحدق بها فترة كالتمثال، وكأنّ كلماتها الواثقة، قد اخترقته اختراقًا.

في تلك اللحظة، دخل عليهم "خالد" الصغير، وقال:

- "مالك"، "عمر"، أبي يريدكما.

***

(نعم!!؟)

هبّ "عمر" من مقعده صارخًا بدهشة وغضب، مقاطعًا "محمد" الجالس أمامه:

- بقى انت جايبني هنا عشان كده؟!

عاوز تزود عدد جيشكم نفر؟!

عاوزني أحارب معاكوا؟

دانا مدخلتش الجيش في مصر، هادخله هنا؟!!

عاوزني أموت؟

قال "محمد" وهو يحاول الاحتفاظ بهدوئه:

- ليس الأمر هكذا، إنه مجرد معسكر للتدريب على فنون القتال واستعمال الأسلحة، كما أنك لن تكون وحيدًا، سيكون معك "مالك"، من المفترض أن تفرح لأنك ستصبح رجلاً.

"عمر" بانفعال وهو يشيح بيديه:

- لا لا الكلام الكبير ده مايجبش معايا أنا.

أنا لا هاروح معسكرات، ولا هاتدرب، ولا هاحارب، ولا ليا دعوة بالموال ده كله!

قال "محمد"، وقد بدا الغضب واضحًا في صوته:

- أمازلت حقًّا لا تصدق أنك من أهل هذا البلد؟

قرب وجهه من وجه "عمر" وهو يقول بصرامة:

- أنت ذئب شيشاني، ولا بد أن تعيش كالذئاب!

لا يغرنك أننا الآن في حالة هدوء نسبي مع الروس، ففي لحظة واحدة قد يتحول ذلك الهدوء إلى جحيم مستعر.

لقد بدأت تظهر نواياهم الخبيثة وما يبيتونه لنا.

ألم تر بعينيك ما فعلوه بنا في السوق؟

هذه البلاد في حالة حرب، وكل أبنائها القادرين على حمل السلاح، يجب أن يكونوا مستعدين للدفاع عنها في أي وقت، ثم إنك لن تحارب، إنه فقط معسكر تدريبي، ستذهب للتدريب على القتال، لا الحرب.

هتف "عمر" وقد استشاط غضبًا:

- لو كنت عارف من الأول إنك جايبني هنا، عشان ترميني في الحرب، ماكنتش جيت!

انت عاوز مني إيه! عاوز تنتقم مني ليه؟ عملتلك إيه؟

أنا مش هاحارب، مش عاوز أموت...

قال "محمد" بصوت كالرعد، والغضب يقطر من كلماته:

- كن رجلاً وتحدث كالرجال، أنا لا أفعل هذا بسبب عداء شخصي بيني وبينك، فابني سيذهب قبلك، أنا أريد أن أصنع منك رجلًا، فكل إنسان

هنا مسئول عن هذه الأرض، فهي أمانة في أعناقنا سيسألنا الله عنها، لا بد أن ندافع عنها حتى آخر قطرة دم في عروقنا، وحتي آخر رجل منا.

هتف "عمر" بعناد شديد:

- أنا مش من البلد دي، ومش ممكن هاعيش هنا أبدًا، أنا راجع مصر، ومش هاتقدر تمنعني!

تفجر "محمد" بالغضب، وهم أن يهجم على "عمر"، لكن "زهرة" التي أتت مسرعة من الغرفة المجاورة على صوت النقاش الحاد، وقفت أمامه، وحالت بينه وبين "عمر"، وهي تقول برجاء:

- أبي أرجوك، هل تسمح لي بكلمة؟

أكملت بسرعه دون انتظار رده:

- لا يمكننا إجباره على الذهاب للمعسكر دون إرادته، لقد تربى في بيئة غير بيئتنا، وهو غير مؤهل نفسيًا ولا جسمانيًا، ليعيش حياتنا، كما أن قضيتنا مازالت بعيدة تمامًا عن تفكيره.

الأب بعناد، وهو ينظر في عيني "عمر" بقوة:

- عندما يعيش بين المجاهدين سيتربى، ويتعلم كيف يكون رجلاً.

قالت "زهرة" برقة:

- أبي، انه غير مستعد نفسيا لفكرة الجهاد، مشاعره غير مؤهلة لاستيعاب الأمر والإيمان بالقضية، لو ذهب إلى هناك الآن بالتأكيد سيفشل.

صمت الأب، وقد أطال النظر في عيني "زهرة" الجميلتين، وهو يفكر بعمق...

أما "عمر"، فقد ظل ينقل عينيه بينهما، وبداخله بركان يغلي بمشاعر كثيرة متناقضة.

بعد قليل... لان وجه "محمد" وهدأت ثورته، ونظر إلى "عمر" وقال بصرامة:

- حسنًا فليذهب "مالك" وحده، ولتبق أنت هنا وحدك، حتى تتعلم كيف تكون رجلاً.

لم يدر "عمر" لمَ لمْ يفرح رغم أن هذا هو ما كان يريده، بل العكس فلقد أصابه كلام "محمد" بصدمة، أو في الحقيقة كلام "زهرة".

فلم يدر أيهما أثاره أكثر، حتى عندما ذهب مع "مالك" إلى غرفتهما، كان صامتا تمامًا، و"مالك" يتحدث بحماس، وهو يجمع أغراضه ويستعد للذهاب للمعسكر:

- أتعلم، أنا سعيد لأنك ستبقي هنا!

أول الأمر شعرت بالضيق، لأنني سأكون وحيدًا هناك، لكني أدركت أهمية وجودك هنا، فأنا لن أكون موجودًا.

وأبي ربما اضطرته الظروف للرحيل، كما حدث من قبل.

فمن سيعتني بأمي وإخوتي؟ أوصيك بهم خيرًا.

إنَّ وجود رجل في البيت، في مثل هذه الظروف التي تمر بها البلاد، أمر ضروري.

رجل!

رنت الكلمة بقوة في أذن "عمر"، وكأنه يسمعها لأول مرة.

وقضى الليلة وهو يتقلب في فراش من الشوك.

لا يدري ما الذي أصابه؟

كانت كلمات "محمد" و"زهرة" تدور في رأسه وتمنعه من النوم.

ما الذي دهاه! ولماذا يشعر بكل هذا الضيق؟

ولماذا تأثر بهذه الكلمات، رغم أنه سمع مثلها بل وأكثر منها من قبل! شعر بجسده يكاد ينصهر من الحرارة، وروحه تكاد تزهق من الاختناق، دفع الغطاء بضيق، وهب جالسًا في فراشه، ثم مسح بعض حبات العرق عن جبينه وهو يفكر.

أخذ نفسًا عميقًا وغادر الفراش، وبخطوات خفيفة اتجه إلى غرفة المعيشة، سمع صوت "محمد" وهو يترنم بآيات القرآن الكريم، بصوته الندي الجميل، فاقترب منه وهو يصلي في خشوع، وألقى بنظره إلى الساعة المعلقة على الحائط، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير.

ظل يدور في أرجاء الغرفة بنفاد صبر، منتظرًا أن ينهي "محمد" صلاته.

عندما انتهى "محمد" من الصلاة، اقترب منه "عمر" وقال بتردد:

أنا... عاوز أروح مع "مالك"

التفت "محمد" إليه، وتنهد وهو يهز رأسه:

– أتظن أن هذا هو الوقت المناسب لادعاء الشجاعة؟!

"عمر" بغضب:

– أنا مش جبان، دانا بعون الله كنت بقفل شوارع في مصر، وأبيتهم من المغرب.

خفض رأسه، وتردد قليلًا وهو يكمل:

– أنا... رايح المعسكر!

***

(4)

في الطريق إلى المعسكر،

شعر "عمر" بندم شديد، وتمني لو لم يكن استسلم لغضبه، وشعوره بالإهانة من كلمات "محمد"، و"زهرة" على وجه الخصوص، وخوفه من أن تظنه جبانًا.

("عمر"، لم أنت شارد هكذا؟)

التفت إلى "مالك"، الجالس بجواره، في السيارة حاملة الجنود التي تقلهما مع مجموعه كبيرة من أقرانهما، إلى المعسكر الذي سيقضيان فيه فترة التدريب، وقال بشرود:

- مش عارف يا أخي! حاسس كده بحاجة غريبة، زي ما أكون كلت قفا جامد قوي!

"مالك" بدهشة:

- ماذا؟!

- قصدي... زي ما يكون حد اداني شلوط، أو مقلب حرامية!

نظر إلى "مالك"، ليجد الدهشة والذهول على وجهه، ففسر قائلًا:

- يعني، زي ما تقول كده حد ضحك عليا، خدني على خوانة، قولي بصراحة، هي أختك "زهرة" كانت تقصد إيه بالكلام اللي قالته لأبوك؟

"مالك" ببساطة:

- أظنها كانت تريد أن تخلصك من الموقف، وتبعدك عن غضب أبي.

"زهرة" هي الإنسان الوحيد القادر على إقناع أبي، وإذابة غضبه في لحظات قليلة، فهو يحبها أكثر من أي شيء آخر في العالم.

"عمر" يتنهد بضيق:

- كانت تقصد كده صحيح؟

ولا كانت بتستفزني، علشان أعمل اللي أبوك عاوزه؟

ضحك "مالك" بمرح:

- ليس هذا ببعيد، فزهرة الجبل تخفي في رأسها أكثر بكثير مما تبديه، كما أنها يمكن أن توصلك ببساطة وهدوء إلى الجنون، كما كانت تفعل معي ونحن صغار!

"عمر" بدهشه:

- (زهرة الجبل)!! اسمها "زهرة" الجبل؟

هز "مالك" رأسه بالإيجاب، وهو يبتسم.

"عمر":

- اسم غريب قوي!

"مالك" وهو يضحك:

- ألا تعلم أن أجمل وأندر الزهور، هي التي تنبت في أحضان الجبل! وهي تمتاز بقوة تحمل لا مثيل لها، فهي تقاوم الرياح والثلوج، وتتغلب على قسوة الشتاء.

ثم تعود لتتجدد فيها الحياة مرة أخرى.

إنها مثال رائع على الصمود في وجه أقسى الظروف.

كان "مالك" يتحدث بحماس شديد، وهو يرسم بقلمه على ورقة صغيرة أخرجها من جيبه، وبعد أن انتهى، ناولها "عمر" الذي ما إن نظر فيها حتى أصابته الدهشة والعجب.

لقد كانت تحمل رسمًا تخطيطيًّا لزهرة نادرة، شديدة الجمال والروعة.

تأمل الزهرة طويلاً، ثم نظر إلى "مالك" وهز رأسه، وابتسم بعجب.

***

لم يستطع "عمر" إغماض جفنه لحظة واحدة، في أول ليلة له في المعسكر من شدة البرد. كان البرد قارسًا بصورة لم يشهد لها مثيلًا، وكان ينام هو و"مالك" داخل خيمة في المعسكر مع أربعة آخرين، ولم تفلح الأغطية الثقيلة في التخفيف من بعض ما يشعر به من البرد.

أخذ يتقلب يمينًا ويسارًا لعله يشعر ببعض الدفء، وعندما يئس انتفض من فراشه، وأخذ يهز "مالك" حتى استيقظ، وقال له بعصبية:

- "مالك"، قوم يله، قوم... خلاص، مش قادر أستحمل، البرد عندكوا هنا شنيع!

"مالك" بصوت منخفض:

- اهدأ يا "عمر" حتى لا يستيقظ الجميع، لا تقلق بعد يومين على الأكثر ستعتاد الجو، قد يكون الشتاء هنا قاسيًا، لكنه يمر كما تمر بقيه الفصول.

علا صوته بغيظ:

- تعرف انك بارد وسمج، زي جو بلدكوا تمام!

أمسك "عمر" بالوسادة وألقاها على وجه "مالك"، الذي رد عليه بدوره ورماه بالوسادة، فخفض "عمر" رأسه لتسقط خلفه، وهو يقول بصوت عالٍ:

- نام يا بارد يا كلح يا سمج!

لكنه صمت تمامًا، عندما وجد الذعر قد ارتسم على وجه "مالك". ثم انتفض بشدة على صوت زئير قادم من خلفه، فالتف بسرعة ليجد خلفه تمامًا عملاق ضخم أشبه في حجمه بالغوريلا، إلا أنه أبيض!!

انكمش "عمر" وارتد للوراء حتى سقط على فراش "مالك"، وهو يسمع العملاق يزأر من جديد ويتكلم بغضب بالشيشانية!

"مالك" يهمس له:

- إنه يسأل من أِيقظه من نومه.

همس في أذنه بخوف:

- أنا هاقتل الجبان اللي دعك المصباح.

"مالك":

- أِي مصباح؟

- مصباح علاء الدين، هو مش كان نايم فيه!

- لا. أعتقد أنه جبل جليدي انزلق حتى وصل إلى هنا!

"عمر" بتعجب:

- وله، هو كان طويل قوي كده بالنهار؟

- أظن أنه اتحد مع ظله ضدنا.

فزع الاثنان عندما صرخ المارد بغضب، وحمل "عمر" من ملابسه بيد واحدة. وحاول "مالك" الدفاع عنه فأمسك بذراع المارد الأخرى،

لكن المارد حرك ذراعه فسقط "مالك" أرضًا، ثم حمل "عمر" لأعلى بيديه، وقذفه خارج الخيمة ليسقط على ظهره بعنف متألمًا، وقبل أن يقوم رأى جسد "مالك" طائرًا في الهواء ليسقط فوقه تمامًا، مما جعله يصرخ من الألم.

رفع "مالك" رأسه وهو يتأوه بشدة، ثم ابتسم بغيظ قائلًا:

– لم تستطع أن تتحمل النوم داخل الخيمة تحت الأغطية الثقيلة؟! ابتسم، ستنام الآن في العراء!

"عمر" بغضب، وهو ينهض بسرعة ويتجه إلى الخيمة:

– لا، أنا ما اتاكلش أونطة، عليا النعمة لأبات جوه غصبن عن حبة عينه، ودخل إلى الخيمة وهو غاضب، وبعد قليل سمع "مالك" صوته وهو يصرخ، ثم رآه قادمًا إليه طائرًا حتى سقط بجواره تمامًا.

قضى "عمر" و"مالك" أغلب الليل سائرين أمام الخيمة ذهابًا وإيابًا، حتى لا يتجمدا من شدة البرد، ولم يكف "عمر" لحظة واحدة عن السباب واللعن لهذا المارد، الذي أجبرهما على قضاء الليل في العراء، في هذا الجو القاتل.

وفجأة قرر "عمر" أن يغادر المعسكر، وحاول "مالك" أن يمنعه، لكن "عمر" استطاع بالفعل خداعه والهرب منه، وتسلل إلى خارج المعسكر، دون أن يراه أحد!!

سار "عمر" لمدة طويلة حتى بدأ ضوء النهار يلوح في الأفق.

وفجأة سمع من ينادي عليه، التفت فوجده "مالك" فهتف بغضب:

– إيه اللي جابك ورايا؟

"مالك" وهو يلهث:

– وعدت أبي أن أعتني بك وأرعاك، فأنت لا تعرف هذه البلاد جيدًا.

هتف "عمر" وهو يجدُّ في السير بخطوات واسعة:

– صح، مش عارفها، علشان كده هارجع للبلد اللي عارفها.

أنا راجع على مصر.

"مالك" وهو يجري خلفه:

- هل جننت؟ كيف ستعود وليس معك مال ولا تعرف الطريق، توقف يا "عمر"، لو بقيت تسير هكذا لوصلت إلى الحدود الداغستانية!

"عمر" وهو لا يتوقف عن السير:

- مايهمنيش!

- ولكنها تحت الاحتلال الروسي. سيمسكون بك.

- أحسن ما أقعد في التلاجة دي، مش ممكن هافضل يوم واحد تاني في المكان الزبالة ده!

التفت إليه بغضب، وهو مازال يسير بسرعة:

- وابعد عني، إياك تيجي ورايا!

جذبه "مالك" من كتفه، وصرخ فيه بغضب:

- توقف. نحن قريبون من الحدود. لن أدعك تذهب إليهم سيقتلونك!

دفعه "عمر" بكفيه بقسوة في صدره، وهو يقول بغضب:

- مالكش دعوة بيا، ابعد عني وارجع لأهلك، أنا مش منكم، فاهم؟ إياك تيجي ورايا.

أمسكه "مالك" من ملابسه، وجذبه بغضب وقال:

- بل أنت تعنيني تمامًا، فأنت ابن عمتي، وأوصاني أبي أن أرعاك.

ضرب "عمر" ساعديه بقبضتيه، وأجبره على ترك ملابسه، وهو يقول بغضب:

- مش عاوز منك حاجة لا أنت ولا أبوك.

أنا ماشي، وبحذرك تاني، إياك تيجي ورايا.

لكمه "مالك" في فكه بغضب، وهو يقول:

- أيها المجنون، أتريد أن تسقط في يد الأعداء؟

اشتبك معه "عمر" في معركة بالأيدي، وأخذ يكيل له اللكمات، وهو يصرخ:

- أنا حر إن شالله أروح جهنم، مالكش دعوة

توقف "مالك" عن ضربه، وظهر على وجهه الحزن والغضب الشديد، وهو يقول:

- إذن فأنت تريد أن تذهب إلى الروس!

دفعه في صدره بكفيه في ضيق، وهو يصرخ:

- فلتذهب، وليقتلوك. لن أحزن ولن أهتم لأمرك، ولكن إياك أن تخبرهم أنك ابن "خالد ديساروف"، لأنهم إن علموا فسيذيقونك العذاب ألوانًا، فأنت بالنسبة لهم. غنيمة

"عمر" بتحدٍ:

- أنا مش ابنه، ارتحت؟

عقد "مالك" حاجبيه بغضب، وظهر على وجهه الاشمئزاز، والتف راحلًا بصمت.

أما "عمر" فقد أكمل طريقه وحيدًا، وظل يسير على أرض جبلية غير ممهدة، حتى كلت قدماه وأضناه التعب.

تجمد فجأة في مكانه، عندما سمع صوتًا خشنًا يقول بالروسية التي علمته "زهرة" الكثير من كلماتها:

- توقف والا أطلقت النار!

التفت ببطء صوب الصوت، فوجد جنديًا روسيًا يصوب سلاحه إليه، فرفع يديه ببطء ووضعهما فوق رأسه، وسقط قلبه بين قدميه عندما سمع صوت السلاح وهو يجهز للإطلاق.

***

(سيدي القائد، لقد أسر الذئب)

انتفض القائد الكبير من مكانه، وصرخ بذهول:

– ماذا! كيف حدث ذلك؟

شرح "أحمد" بصوت يملؤه الأسف:

– كنا في طريقنا إلى موقع العملية، واعترضتنا كتيبة روسية للمشاة، كان يبدو أنهم قادمون من أجلنا، وأدركنا أنّ خبر العملية قد تسرب إليهم بطريقة ما، وكادوا يطوقوننا من الخلف، لولا الذئب الذي استطاع أن يتسلل بمهارة، واخترق الحصار وصعد فوق الجبل، وأمطرهم بوابل من النيران، فظنوا أنه كتيبة كاملة تهاجمهم، فاتجهوا إليه واستطعنا التخلص من حصارهم، وحاولنا إنقاذه فلم نستطع، لأن قوات الإمداد قد وصلتهم، وحاصروا الذئب، لكنهم لم يستطيعوا التقدم إلا عندما نفدت ذخيرته، ورأيناهم وهم يأسرونه، فأرسلنا اثنين منا خلفهم ليراقبوهم، ويعرفوا إلى أين أخذوه.

القائد الكبير بجزع:

– لا حول ولا قوه إلا بالله العلى العظيم!

لا بد أن نخلصه من أيديهم قبل أن يقتلوه، اجمع لي قادة الكتائب الآن وأخبر كتيبة الأنصار بالاستعداد.

جلس القائد الكبير وسط قادة الكتائب، وأخذ يتشاور معهم في الأمر.

قال أحد القادة:

- ستكون مهمة تخليصه من أيديهم شديدة الصعوبة، فالقاعدة التي نقلوه إليها عسيرة على الاقتحام، ولا شك أنهم قد شددوا عليه الحراسة.

القائد الكبير:

- لا يمكن أن نتركه بين أيديهم، سيذيقونه العذاب ألوانًا قبل أن يقتلوه، إن حياته باتت مهددة.

قائد آخر:

- سيدي القائد، لديّ خطة!!

***

جلس "عمر" وحيدًا في إحدى الحجرات الصغيرة، داخل المعسكر الذي نقله إليه الجنود الروس، بعد أن أسروه وأخذوه معهم. وهو طوال الطريق يحاول إقناعهم بأنه ليس شيشانيًّا، لكنهم لم يفهموا منه شيئًا، فلم يكن أحد منهم يعرف العربية، كما أنه أخفى عنهم أنه يعرف اللغة الشيشانية.

وبمجرد أن وصل إلى المعسكر، أخذوه إلى أحد الضباط الروس الذي يعرف العربية لاستجوابه، وبعد ساعتين كاملتين من التحقيق والاستجواب المرهق، استطاع أن يُقنع الضابط (أو هكذا ظنّ) أنه كان يعمل في السعودية، عندما التقي بأحد الرجال الشيشانيين الأغنياء، قدم إلى السعودية في عمرة، واستطاع الرجل إغراءه بالمال ليعمل عنده، فوافق وأخذه معه إلى بلده ليعمل خادمًا له ولأسرته، وعندما طلبوا ابنه للذهاب إلى معسكر المجاهدين، دفع الرجل مبلغًا كبيرًا من المال له ليذهب إلى المعسكر مكان ابنه، ووافق مضطرًّا،

وذهب إلى المعسكر، لكنهم كشفوا أمره، فهرب منهم ثم وقع في أيدي الروس. وبرغم عدم اقتناع الضابط بالقصة، ومحاولاته لمعرفة الحقيقة بالضغط النفسي على "عمر"، إلا أنه تركه أخيرًا وأمر الجنود باصطحابه إلى تلك الحجرة.

تنهد "عمر" بعمق، ونهض من مكانه وأخذ يدور في المكان، والقلق والخوف يسيطران عليه، إلا أنه تماسك قدر ما يستطيع، وأخفى قلقه حتى لا يُفتضح أمره، عبر كاميرا المراقبة المثبتة في أعلى الحائط.

أخذ يتأمل الحجرة ويدور فيها بعينيه، كانت صغيرة ومتاعها قليل، مجرد سرير صغير ودولاب ومنضدة وأربعة كراسي.

انتفض "عمر" وارتد للخلف عندما فُتح باب الحجرة فجأة، واتسعت عيناه من الدهشة والانبهار، فقد كانت تقف على باب الحجرة، أجمل فتاة رآها في حياته، تأملها قليلاً، ثم صرخ في نفسه:

- يا أولاد الأبالسة! ابتديتوا تلاعبوني؟!

اهدا يا "عمر" لا تنكشف!

اهدا وركز، وفكر كويس في اللي هاتقوله وتعمله.

قالت الفتاة بلهجة عربية سيئة:

- أهلاً وسهلاً، هل أنت جائع؟

أومأ "عمر" برأسه دون أن يتكلم.

دخلت الفتاة إلى الحجرة، وخلفها رجل يحمل صينية عليها طعام وبعض المشروبات، وضعها على المنضدة ورحل، وأغلقت الفتاة الباب خلفه. ونظرت إلى "عمر" وهي تقترب منه، فابتسم لها ابتسامة عريضة محاولًا إخفاء قلقه وتوجسه.

وضعت يدها على كتفه فانتفض مبتعدًا عنها، فرفعت أحد حاجبيها بدهشة وقالت:

- هل تخاف مني؟!

قال بارتباك:

- لا، بس!...

ثم نظر إلى الطعام وأكمل:

- أصلي جعان.

قالت وهي تضحك:

- تفضل الطعام أمامك.

هجم "عمر" على المنضدة، وأخذ يلتهم الطعام بنهم، فهو لم يأكل منذ أمس. وجلست الفتاة في الكرسي المجاور له، وأخذت تراقبه وهو يأكل بمزيج من العجب والاشمئزاز.

كان يأكل بطريقة غريبة ومقززة، يأكل بيديه الاثنتين ويصدر أصواتًا عالية بفمه، تقزز أشد النفوس ثباتًا.

ولكن يبدو أن الفتاة استطاعت التغلب على ذلك، فوضعت يدها فوق كتفه، ومالت عليه وهي تقول:

- أتعلم أنك وسيم؟

نظر إليها ورسم على وجهه السعادة، وفتح فمه المملوء بالطعام وضحك ضحكة شديدة البلاهة، ثم أمسك بدورق الماء وأبعد الكوب جانبًا، ورفعه عاليًا بعيدًا عن فمه، وأماله ليسقط الماء داخل بلعومه مباشرة، مصدرًا صوتًا شديد الصخب، جعل الفتاة تبتعد عنه.

وضع الدورق على المنضدة ثم تجشأ بصوت عالٍ جدًا، فانتفضت الفتاة من على المنضدة، وجلست على السرير بعيدًا عنه.

أنهي طعامه ونهض من على الكرسي، ومسح أنفه وفمه في كمه، وكادت الفتاه تفرغ ما في جوفها، عندما تمخط "عمر" متعمدًا على الأرض، ثم مسح يديه في ملابسه.

ولكن يبدو أنها كانت مدربة جيدًا، فقد تجاوزت كل ذلك، واقتربت منه من جديد، ووضعت يديها حول رقبته، فأزاح يديها ببطء، وهو يبتسم ابتسامته العريضة، وقال:

- لا... لا، بصي يا أختي، أصل الطريقة دي مش هاتنفع معايا!!

قالت بلغتها العربية السيئة:

- وما هو الأسلوب الذي ينجح معك؟

قال:

- معلش يا أختي أصل بعيد عنك عندي الهسهس!!

قالت بدهشة:

- ماذا؟

"عمر" وهو يبتعد عنها:

- قصدي أقول يعني عندي وسواس في مخي، ساعة تروح وساعه تيجي،

لا وباخاف من خيالى، وأمي قالت لي اوعى يا واد يا "عمر"من الإيدز، علشان كده باترعب كل ما أشوف واحدة حلوة زيك!!

رفعت حاجبيها بدهشة، فأكمل:

- وبعيد عنك ياختي عندي حساسية من الريحة الحريمي، وكل ما أشم ريحة كلونيا حريمي، ألاقي جلدي احمر وجسمي كله قام عليا، واشتغل هرش، ونطر دمامل وخراريج، بُصي!!

رفع ملابسه، فرأت بعض الدمامل الحمراء المتناثرة على ظهره، فانتفضت باشمئزاز بعيدًا عنه.

"عمر" بتساؤل:

- الا قوليلي يا أختي... همه حابسني هنا ليه؟

قالت بتأكيد:

- لا، اطلاقًا... فقط نحن نحميك من هؤلاء الإرهابيين، فلا شك أنهم يبحثون عنك الآن.

هز "عمر" رأسه، ورسم على وجهه تلك الابتسامة البلهاء، لكن من داخله كان يشعر بالخوف الشديد.

جلست على السرير ووضعت ساقا فوق الأخرى، وقالت:

- أخبرني يا "عمر" أتريد أن تعود لبلدك؟

قال بلهفه:

- أبوس إيديكي!!

قالت:

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال بسرعه:

- الفلوس... الفلوس طبعًا يا حلوة!

سألته:

- أنت تحب المال؟

قال:

- ومين مايحبهوش؟

قالت:

- أتحب لعب الورق؟

لمعت عيناه بقوة، وقال:

- دا أنا معلم!

قالت:

- حسنًا انتظرني قليلًا حتى أعود.

***

اقترب الجنرال الروسي من الذئب بخطوات بطيئة، حتى وقف أمامه مباشرة، ووضع إحدى قدميه على صخرة، والأخرى على الأرض، وهو يمسك عصا غريبة، أخذ يهزها في يده وهو يتأمل الذئب...

كان الذئب في حالة يرثى لها، فقد كان عاريًا تمامًا، ومعلقًا من رسغيه في العراء بحبلين رفيعين، ومغموسًا حتى خصره في حفرة، مملوءة بالمياه المثلجة تجمد الدماء في العروق، بالإضافة إلى درجة حرارة الجو التي تقترب من الصفر.

قال الجنرال بشماتة:

- إذن فأنت الذئب!!

أكمل عندما لم يتلق ردًّا:

- أتعلم كم كبدتنا من خسائر في المال والجنود؟

رفع الذئب رأسه ببطء، ورماه بنظرة مخيفة، ارتجف لها قلبه رغمًا عنه وقال:

- أتريدني أن أقدم اعتذارًا رسميًّا؟

ضغط الجنرال أسنانه، وظهر في عينيه غضبٌ، لكنه استطاع أن يتحكم في تعبيرات وجهه بمهارة، فرفع إحدى حاجبيه وابتسم بسخرية، وقال:

- يعجبني الرجل القوي الرابط الجأش.

قرَّب العصا من وجهه، وبمجرد أن لامست فكه سرى فيها تيار كهربائي، صعقه صعقة شديدة ارتج لها جسده بعنف، واهتز الماء من حوله، وبرغم ألمه الرهيب لكنه لم يتأوه أو يصدر أي صوت.

قال الجنرال ببرود شديد:

- هل أعجبتك؟، إنها فقط بداية لفتح شهيتك.

صمت قليلًا ثم قال:

- أتظن حقًّا أنكم ستنتصرون؟! أنتم مجرد حشرات متمردة إرهابية. وسنسحقكم بأحذيتنا سحقًا. لقد أمسكنا بك داخل أراض روسية وأنت تجهز لعملية إرهابية كبيرة.

سقطت أقنعتكم، لم يعد الأمر دفاعًا عن أرض ولا مطالبة بالحرية، بل مجرد زمرة من العصابات المتمردة التي تقوم بعمليات إرهابية.

كان جسد الذئب يرتجف بشدة من البرد، لكن عينيه ثابتتان يشع منهما بريق مخيف وهو يقول:

- تلك الأكاذيب التي تملؤون بها آذان العالم لن تفت في عضدنا، داغستان ليست أرضًا روسية، بل هي أرض مسلمة من أيام الخليفة

المسلم الراشد "عمر بن الخطاب"، أنتم تحتلون أرضًا مسلمة، ونحن نساعد أهلها على تحريرها من جبروتكم وبطشكم، إنها من أقدم بلاد القوقاز إسلامًا.

كما أن القائد "شامل باسييف" وقاده داغستان قاموا بتأسيس الاتحاد الشعبي الشيشاني الداغستاني منذ عام ١٩٩٨

- قال الجنرال وقد بدأ الغضب يتسلل إلى صوته:

- داغستان روسية، وستظل روسية. وما فعلتموه فيها ليس سوى مجموعة من العمليات الإرهابية، التي ستحاكمون عليها وتعدمون.

الذئب:

- وما تفعلونه الآن في الشيشان أليس إرهابًا؟ ألم تخرقوا بنود الاتفاقية التي بيننا وبينكم و تضربوا مواقع مدنية! ألم ترتكبوا جرائم ضد الإنسانية؟ ألم تحتلوا جروزني رغمًا عن أنف أهلها.

ضغط أسنانه بقوة واهتز صوته من الغضب، وهو يكمل:

- ألم تضربوا قوافل المهاجرين المدنيين العزل بالطائرات، وتحرقوا حافلاتهم؟ إنَّ هذا هو الإرهاب بعينه!

إنكم تحتلون داغستان أيضًا رغمًا عن أهلها، وتجبرونهم على الخضوع لسلطتكم دون إرادتهم، لقد ضربتم قرية (كومادا) بالطائرات والمدافع وهي قرية داغستانية.

الجنرال:

- لقد ضربناها بعد أن احتلها المتمردون الشيشانيون لنخرجهم منها.

الذئب:

- لقد استنجد بنا أهل القرية أنفسهم، بعد أن حاصرتموها وضربتموها بالطائرات والمدافع.

الجنرال بغضب:

- لقد استدعتنا الشرطة الداغستانية، بعد أن فشلوا في صد هجوم المتمردين الداغستانيين.

إن داغستان روسية وستظل روسية، هل تفهم؟

الذئب ساخرًا:

- رغمًا عن أنف أهلها جميعًا!

صاح الجنرال، وقد بدأ يفقد السيطرة على أعصابه:

- لا تدعي الشجاعة. فستُهزمون عما قريب، فليس لديكم القدرة على مواصلة القتال لفترات طويلة.

الذئب بتحدٍ:

- لو لم تكن لدينا القدرة على مواصلة القتال ضدكم، لما دخلنا داغستان لنجدة إخواننا في إقليمي (بوتليخ وكراماخي)، ومساعدتهم على قتالكم بعد أن استنجدوا بنا.

الجنرال بغضب هادر:

- سنرى الآن مدي شجاعتك الحقيقية، واعلم أنك لن تموت الآن، بل ستموت قطعة قطعة. ولتصرخ بكل قوتك ليسمعك إلهك، ويأتي لينقذك!

مد يده إلى أحد جنوده الذي أعطاه سلكًا كهربائيًّا.

فقال بلهجة شديدة البرودة:

- هل تشعر بالبرد؟! حسنًا... سأدفئ لك الماء، استمتع بحمامك الدافئ أيها الذئب.

ثم وضع السلك في الماء!

***

تصاعد الدخان كثيفًا من السيجارة التي تتدلى من فم "عمر"، وامتلأت منفضة السجائر التي أمامه على المنضدة، بكمية كبيرة من أعقاب السجائر، تشير إلى مدخن شره، كان يمسك بين يديه ببضعة بطاقات من أوراق الكوتشينة، وينظر إليها بتركيز شديد، وحول المنضدة التف ثلاثة من الضباط الروس يلعبون معه الورق.

كشف كل منهم أوراقه على المنضدة، وظهر على وجوههم الإحباط، فتناول "عمر" ورقة أخرى، من كومة أوراق مقلوبة على المنضدة، ورتبها وسط أوراقه ثم كشف أوراقه كلها على المنضدة، وهو يضحك بابتذال شديد:

- هأ هأ هأ هأو، قفف، أنا بلاعب قفف!

كل واحد فيكم يطرقع قفاه ويحط فلوسه هنا!!

ورغم أنهم لم يفهموا من كلمات "عمر" الساخرة شيئًا، وضع كل منهم ماله على المنضدة، وهم يتحدثون إلى بعضهم البعض بعصبية، ويبدو عليهم الغيظ الشديد، وجمعها "عمر" أمامه بلهفة وهو يدخن السيجارة بشراهة

وقال:

- لو فضل الحظ كده ملالي، يبقى هارجع على مصر قريبًا جدًّا...

بدأت اللعبة من جديد، وبدأ "عمر" يرتب أوراقه، لكنه بدأ يشرد ويتشتت ذهنه، عندما وجد أمامه صورة بنت في إحدى الأوراق، خيل إليه أنها تنظر إليه. هز رأسه وأغلق عينيه ثم فتحهما، وتعجب بشدة هل يخيل إليه أنها تشبه "زهرة"؟!

كانت عيناها وكأنما تنظران إليه بنظرات حزينة، سحب ورقة من الكومة المقلوبة فوجدها صورة ولد. أخذ يفرك عينيه بيده، فقد هيىء له أنه يشبه "مالك"، هز رأسه مجددًا، محاولًا طرد تلك الأفكار من رأسه، وبدأ يركز في اللعبة، لكن كلمات "زهرة" و"مالك" كانت تخترق رأسه اختراقًا، وتمنعه من التركيز في اللعب.

"مالك":

- إنهم يريدون إبادتنا!

"زهرة":

- الحرية لدينا أغلى من الحياة.

"مالك":

- المساجد أول شيء يستهدفونه!

"زهرة":

- نحن نؤمن تمامًا أننا سننتصر، حتى لو لم نر النصر بأعيننا، فسيراه من بعدنا، لكننا في النهاية... سننتصر!

أفاق من تخيلاته على صوت أحد الضباط، يقول له بالروسية:

- العب!

نظر إليه شذرًا، ثم أخذ نفسًا طويلًا من السيجارة، وأكمل اللعب.

فجأة انتفض الجميع على صوت صفارات الإنذار، تدوي بقوة في المكان. تحدث الضباط الثلاثة إلى بعضهم البعض، ورحلوا مسرعين. وبقي "عمر" وحيدًا يفكر. ومع أصوات طلقات الرصاص والمدافع التي تدوي في أذنيه، شعر أنه في مأزق حقيقي، فماذا سيفعل به المجاهدون إذا ما تمكنوا من استعادته؟ وبدأت تراوده أفكار رهيبة، أصابته برعب حقيقي.

***

استرد الذئب بعضًا من وعيه، وبدأ يشعر بما حوله، لكن عقله كان مشوشًا تمامًا، والرؤية لديه مهتزة، الشيء الوحيد الذي طغي على كل حواسه هو آلامه الرهيبة.

وصل إلى أذنيه أصوات صخب وضوضاء وموسيقى، قادمة من بعيد. فتح عينيه بصعوبة، وبرغم أن الرؤية لديه لم تكن واضحة، إلا أنه تبين أضواء ملونة مهتزة. وأخيرًا وبعد تركيز شديد، تذكر أنَّ في هذه الأيام يحتفل الناس برأس السنة، بدأ الألم يذهب بعقله ويفقده وعيه من جديد، لم يدر كم بقي على هذه الحالة، يذهب وعيه من الألم والبرد ثم يفيق، حتى سمع أصواتًا من حوله ففتح عينيه، وأدرك أنه موعد تبديل وردية الحرس.

انصرف الحرس القديم وهدأ الوضع، ثم سمع الذئب صوتًا يهمس باسمه ففتح عينيه بصعوبة، كان الحارس يهمس له:

- أيها القائد، أبلغك تحيات القائد الكبير، اطمئن، سنخرجك من هنا سريعًا إن شاء الله.

عرفه الذئب من صوته، لقد كان "جوهر"!!

رفعه الحراس الثلاثة من الماء، وفكوا وثاق يديه، وساعدوه. فلم يكن بمقدوره تحريكهما، ولفوه في غطاء سميك، وحمله اثنان واقتادهم الثالث، عبر طرقات مظلمة يعرفها جيدًا، بعيدة عن الحراسة، حتى وصل إلى مبني مكون من دورين، دخل الثلاثة من الباب الخلفي، متبعين الحارس الذي فتح أحد الأبواب، وأدخلهم إلى غرفة واسعة، بها جهاز حديث للتدفئة، وهمس قائلاً:

– لا تضيئوا الأنوار.

ثم خرج وأغلق الباب خلفه، ووقف أمام الباب من الخارج، يراقب الطريق.

ساعد "جوهر" و"أحمد" المتنكران في زي الحرس الذئب على ارتداء زي ضابط روسي، ومع الدفء والتدليك بدأت يداه تتحركان تدريجيًّا.

نظر الذئب إليهما وهما يساعدانه على ارتداء ملابسه، وقال بصوت متعب: كيف دخلتم إلى المعسكر؟

همس "أحمد":

– لدينا مَن يساعدنا.

أغلب الجنود لديهم الاستعداد لبيع روسيا بأكملها، من أجل المال، والحكومة عاجزة عن دفع رواتبهم منذ عدة أشهر.

كما أن الوقت مناسب جدًا، فأغلب الضباط والجنود الروس مشغولون في الاحتفال برأس السنة، وقائدهم منغمس حتى أذنيه في الخمر والرقص.

فتح الباب فجأة، وظهر من خلفه الحارس الثالث، وقال بقلق:

- أسرعوا، ستمر دورية التفتيش بعد خمس عشرة دقيقة، وسينكشف أمرنا.

قال "جوهر" وعلى وجهه ابتسامة ثقة كبيرة:

- اطمئن، لن يحدث إن شاء الله لقد أعددنا للأمر جيدًا.

"أحمد":

- انتهينا، هيا بنا.

انقضت العشر دقائق، وبعدها دوت صفارات الإنذار في أرجاء المعسكر.

وعندما سمعها الجنرال قائد المعسكر، هبّ من أمام المائدة العامرة بالطعام والشراب الفاخر، وسقط كأس الشراب من يده، وهو يصرخ بلا وعي:

- الذئب!

انتابته حالة من القلق والتوتر الشديد، ونظر إلى المرأة التي ترافقه في احتفال خاص في غرفته، وقال بتوتر:

- ترى، ماذا حدث؟

جرى إلى النافذة وأزاح الستائر، وجالت عيناه في أرجاء المكان...

كان الاحتفال قد توقف وصمتت الموسيقى، وخرج أغلب الجنود إلى ساحة المعسكر، التي حولتها الأضواء الكاشفة إلى نهار، وسادت بينهم حالة من الهرج.

حاول أن يطمئن نفسه، فهمس بصوت خافت:

- لا يمكن أن...

انتبه على صوت طرقات على الباب، ففتح بسرعة، فوجد أمامه أحد الجنود الذي قال بتوتر:

– سيدي الجنرال، لقد... لقد هرب الذئب!!

أصيب الجنرال بالوجوم قليلاً من أثر الصدمة، ثم انتابته حالة من الغضب الهائل، وصرخ بعنف:

– ماذا؟! مستحيل، والحرس، والأسوار، والجنود!! والضباط؟

أين كنتم؟! سأعدمكم جميعًا فردًا فردًا، ارفع درجة الاستعداد القصوى، وأخرج فرقًا للبحث عنه، وأطلق كلاب الحراسة، لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا، يجب أن يكون بين أيدينا، قبل أن يصل الخبر إلى القائد الأعلى.

انصرف الجندي لتنفيذ الأوامر، وأخذ الجنرال قبعته العسكرية، ووقف أمام المرآة يصلح من ملابسه بعصبية، وهو يخاطب رفيقته:

– لا ترحلي، سأجده، وعندها لن أرحمه، انتظريني، سأعود سريعًا.

تسمر في مكانه عندما رأى في المرآة انعكاس صورة رفيقته، وعلى وجهها ارتسم الرعب الشديد.

التفت إلى حيث تنظر، وارتد للخلف بحدة، عندما رأي "جوهر" يقف أمام دولاب ملابسه المفتوح، ويصوب سلاحه لهما، وبيده الأخرى يضع سبابته فوق فمه مشيرًا لهما بالسكوت، وهو يقول بصوت خافت صارم:

– ششت، إياك أن تحدث صوتًا، لأن مسدسي أسرع من أي جندي سيأتي لإنقاذك أنت وهي!

سمع صوتًا خلفه، فالتفت بحدة، فوجد الذئب يخرج من تحت سريره ومعه "أحمد"، وهو يساعده على الوقوف، ويصوبان سلاحهما باتجاهه.

قال الجنرال بذهول:

– كيف؟ كيف دخلتم إلى هنا؟

"جوهر" ببرود ساخر:

– دخلنا قبلك بدقائق، وأعددنا لك مفاجأة كبيرة بمناسبة العام الجديد، هل أعجبتك؟

وضعت الفتاة يدها على فمها برعب حتى لا تصرخ، أما الجنرال فقد تراجع إلى الوراء حتى اصطدم بالكرسي، فسقط عليه باستسلام وقال:

– والآن، ماذا تريدون مني؟

قال "جوهر":

– نريدك أن تصحبنا في رحلة للبحث عن الذئب!

أدار الجنرال رأسه بحدة، ونظر إلى الذئب، وعقد حاجبيه بدهشة، ودبّ الرعب في قلبه.

***

كان الموقف مخيفًا بحق.

طلقات المدافع تدوي ليلاً، وهو في موقف لا يحسد عليه، ولا يدري من أين يأتي الخطر.

أخذت عيناه تدوران في المكان بقلق، وهو يفكر في موقفه الراهن، وما يمكن أن يفعله، نظر إلى كاميرا المراقبة المعلقة أعلى الجدار، وأخذ يتأملها طويلاً وعيناه تضيقان.

فجأة نهض من مكانه، وأمسك بأحد الكراسي، وضرب به الكاميرا بقوة انتزعتها من مكانها، وقطع أسلاكها، ثم قذف الكرسي في النافذة وكسر زجاجها.

انتبه الجندي الواقف بالخارج يحرس باب الحجرة، إلى صوت التكسير فاقتحم المكان، وفحصه بسرعة فلم يجد أحدًا، جرى نحو النافذة وأمسك بالحديد الذي يغلق مدخلها، وجذبه بقوة وهو يسأل نفسه بدهشة:

- ترى هل اخترق الأسير الحديد وفرّ من النافذة؟

لم يستطع أن يجيب على السؤال، بل لم تكن لديه فرصة ليفكر في السؤال نفسه، ومدى إمكانية تنفيذه على أرض الواقع، لأنّ ضربة شديدة أصابت رأسه من الخلف أفقدته الوعي.

ألقى "عمر" الكرسي من يده، وانحنى على جسد الحارس الفاقد الوعي، وبدأ ينزع عنه زيه العسكري بسرعة كبيرة، وهو يقول لنفسه:

- نفسي أعرف عنوان مصنع الموبيليا اللي بيتعاملو معاه، العفش عندهم جامد قوي، والسراير عالية لدرجة إنها ممكن تخبي فيل تحتها!

انتهي من ارتداء ملابس الجندي، وأرخى قبعته فوق عينيه لتخفي نصف وجهه، ثم فتح الباب وتسلل إلى الخارج متسترًا بالظلام، وحمد الله كثيرًا فأغلب الجنود مشغولون بصد هجوم المدافع الشيشانية، التي تمطرهم بقذائفها من الجبال المحيطة، واضطرهم ذلك لإطفاء الأنوار والكشافات القوية في ساحة المعسكر.

ظل "عمر" يجري بحذر محتميًا بالمباني، حتى دخل إلى الجراج محاولاً إيجاد مكان آمن ليختبأ فيه، وأخذ يتسلل بين السيارات الكبيرة حتى لا يراه أحد، كان الجو في المعسكر شديد الفوضى، وأصوات المدافع تصم الآذان. والمدافع الشيشانية تضرب بقوة من الجبال القريبة، وكأنّ الجبال تقاتل معهم.

(هاي. أنت)!!

تسمر "عمر" في مكانه، عندما سمع صوتًا يتحدث إليه بالروسية التي علمته "زهرة" الكثير من كلماتها، فتجمدت الدماء في عروقه، وكاد قلبه يتوقف من الخوف.

***

(5)

توقفت سيارة الجنرال قائد المعسكر أمام البوابة، تنتظر أن يفتح لها الحرس الباب، بعد أن يتأكدوا من هوية الجنرال، فقد أصدر الجنرال أوامره بأنه سيخرج بنفسه، وبصحبة اثنين من الضباط للبحث عن الذئب الأسير، الذي فرّ من المعسكر، وكأنه ماء سقطت عليه أشعة الشمس فبخرته، دون أن تترك منه أدنى أثر!

عبرت السيارة بوابة المعسكر، مودعة بنظرات التساؤل والعجب من جميع الجنود، بسبب تصرفات الجنرال الغريبة، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الاعتراض على أوامر الجنرال الغاضب.

سارت السيارة مسافة طويلة، وكل من فيها يخيم عليهم الصمت الثقيل، حتى توقف "أحمد" الذي كان متنكرًا في زي سائق السيارة، في منطقة آمنة وسط جبال عالية، ونزل "جوهر" من السيارة وهو متنكر في ملابس ضابط روسي، وفتح الباب المجاور للجنرال بحدة.

التفت الذئب الجالس في المقعد الخلفي في حلة ضابط روسي، إلى الجنرال الذي يجلس بجواره صامتًا مُكرهًا، بفعل المسدس الملتصق في جنبه، وقال بصوت قوي:

- نهاية رحلتك!

التفت له الجنرال برعب، وأخذ يقلب عينيه بينه وبين "جوهر" وقال بتوسل:

- ماذا؟! هل ستقتلونني؟ لقد نفذت كل ما أمرتموني به!

الذئب بصرامة:

- لو أردت أن أعاقبكم على كل جرائمكم في حقنا، لما روتني دماؤكم جميعًا، ولكننا لا نسعى للانتقام بل، نسعى إلى العودة، فلم يحن وقت الانتقام بعد.

أردف بلهجة مخيفة:

- انزل من السيارة.

نزل الجنرال على الفور وهو يرتجف رعبًا، وجذبه "جوهر" من ملابسه ودفعه بعيدًا، وهو يقول بسخرية:

- رحلة سعيدة للعودة إلى المعسكر وحيدًا، على قدميك في ذلك الجو الجميل، أتمنى أن يجدوا رفيقتك سريعًا ويحلوا وثاقها، والا اضطرت لانتظارك كل هذه المدة.

ثم قفز إلى السيارة التي انطلقت بسرعة، واختفت في الظلام، لتنفيذ الجزء الثاني من خطة الهروب.

ووقف الجنرال وحيدًا في الظلام، يرتجف بردًا وخوفًا، يفكر فيما سيفعلونه به عندما يعود إلى المعسكر.

***

التفت "عمر" بسرعة إلى من يحدثه، فوجده أحد الضباط الروس يجلس داخل سيارة نقل كبيرة مغطاة، وهو يصرخ فيه بكلمات لم يفهم معظمها، إلا أنه حياه التحية العسكرية، ورد عليه بكلمة واحدة فقط وهي:

- نعم سيدي!

قلب "عمر" الأمر في رأسه بسرعة، ومن خلال حصيلة الكلمات التي أمدته "زهرة" بها فهم تقريبًا ما يريده الضابط!

قفز إلى السيارة في كرسي السائق، وبدأ يقود السيارة وقلبه يقفز من الخوف، وحمد الله كثيرًا في نفسه أنه تصرف تمامًا كما يريد الضابط. خرج من الجراج وسار بالسيارة، حتى وجد نفسه يسير خلف طابور من ثلاث سيارات، تحمل فوق ظهرها عددًا كبيرًا من الجنود.

توقفت السيارات أمام بوابة المعسكر الخلفية، وشعر "عمر" وكأن الدقائق تمر عليه كدهر، وهو يحاول أن يتماسك، ويخفي خوفه حتى لا يفتضح أمره.

وأخيرًا عبرت السيارات البوابة، وخرجت من المعسكر وهو خلفهم.

طوال الطريق و"عمر" يفكر في طريقه للهروب، من السيارات التي أمامه والضابط الجالس بجواره.

نظر "عمر" إلى الضابط الذي بجواره فوجده اتكأ بظهره للوراء وأرخى القبعة على عينيه، وظهرت عليه علامات النوم. فبدأ يخفض من سرعة السيارة بهدوء وبشكل غير ملحوظ، وبدأت المسافة بينه وبين السيارة التي أمامه تتسع تدريجيًا، وفي كل لحظة كان ينظر إلى الضابط بجواره، ليتأكد أنه لم يلحظ ما فعله، حتى ابتعد عن السيارات بمسافة كبيرة.

وفجأة انتفض "عمر" على صوت جهاز الاستقبال في السيارة، وأخذ ينقل عينيه برعب بينه وبين الضابط المجاور له، والذي استيقظ على صوت الجهاز.

ووقع "عمر" في حيرة شديدة. فلو أمسك بالميكروفون فإنّ لغته الروسية لن تساعده على فهم ما يقولون، ولا الرد عليهم. وإن لم يمسكه فماذا سيفعل مع الضابط الذي بجواره؟

حسم أمره أخيرًا عندما نظر إليه الضابط بدهشة، وأمسك بالميكروفون، وقال:

- نعم سيدي!

أتاه الرد في بضعة كلمات لم يفهمها جيدًا، فطال صمته وهو يختلس النظر إلى الضابط، الذي ينظر إليه بدهشة وريبة.

فجأة، فزع بشدة عندما سمع دوي انفجار رهيب، ورأي نيرانًا تشتعل من بعيد، فصرخ الضابط بكلمة لم يتأكد "عمر" تمامًا من معناها، لكنه تراجع بالسيارة ودار بها بعنف، وعاد أدراجه بسرعة كبيرة، والضابط يصرخ وكذلك جهاز الاستقبال، وأصوات الانفجار وطلقات الرصاص تدوي من بعيد.

وسط كل هذا الجنون ترك "عمر" المقود، وانقض على الضابط فجأة وأخذ يضربه بكل قوته، والضابط يبادله الضربات في معركة شرسة وهو يحاول أن يصل إلى مسدسه، لكن "عمر" كال له عدة لكمات، وفتح الباب المجاور له ودفعه خارج السيارة، لكن الضابط كان قويًا بحق فتشبث بالباب، وأمسك "عمر" بالمقود ليعدل من وضع السيارة، التي حادت عن الطريق، ورأى الضابط وهو يحاول العودة إلى السيارة، فدفعه دفعة قوية بقدميه الثنتين معًا، ألقت به خارج السيارة بعيدًا.

أخذ "عمر" يلهث بشدة، وهو يمسح الدماء التي سالت على وجهه من أثر المعركة، وراح يفكر فيما حدث وهو يقود السيارة بسرعة، في طريق لا يدري إلى أين تذهب به.

كان يشعر بالامتنان الشديد ل"زهرة"، وما فعلته من أجله.

لم يكن يتوقع في يوم من الأيام، أنّ دروس اللغة الروسية المملة، التي كانت "زهرة" ترهق نفسها وتقتطع من وقتها لتعلمه إياها، ستنقذ حياته يومًا ما.

انتفض عندما سمع صوت طلقات نارية يأتيه من كل مكان، فخفض رأسه بخوف، واختلت عجلة القيادة في يده، وحاول قدر استطاعته السيطرة عليها، لكنها انحرفت بشكل مخيف وخرجت عن الطريق، واستطاع "عمر" بصعوبة كبيرة إيقافها.

نظر حوله فوجد المجاهدين بلباسهم المميز، يحيطون به من كل مكان، فرفع يديه فوق رأسه، وصرخ برعب:

- لا تُطلقوا النار، أنا شيشاني، أستسلم. محدش يضرب نار!

نطق الجملة الأخيرة بالعربية، ثم فتح باب السيارة ببطء، بعد أن أمره قائد المجاهدين، ونزل منها مشبكًا يديه فوق رأسه، ورأى مجموعة كبيرة من المجاهدين، وهم يطوقون السيارة من كل مكان.

في طريق العودة إلى المعسكر، كان "عمر" يتعجب من نفسه، ويتساءل عن السبب الحقيقي، الذي جعله يختار جانب المجاهدين الشيشان دون الروس، رغم تأكده من فرق القوة الهائل لصالح الروس، والذي سوف يمكنهم من الانتصار لا محالة.

لماذا رفض البقاء في المعسكر الروسي، رغم أنه كان أكثر أمانًا بالنسبة له؟ كيف حسم أمره بمثل هذه السرعة، وقرر أن يهرب ويعود للمجاهدين، برغم خوفه من أن يتهموه بالخيانة؟!

هل هو "مالك"؟ أم "زهرة"؟ أم "محمد"؟، هل يصدق حقًا أنه ينتمي إليهم؟

***

لأول مرة في حياته، يشعر "عمر" بكل هذا الخزي والخجل، وذلك عندما استدعاه قائد المعسكر إلى مكتبه، وهناك وجد "مالك" الذي ما إن رآه، حتى أشاح بوجهه بعيدًا، بغضب واشمئزاز!

وقف الاثنان أمام قائد المعسكر، الذي وجه حديثه الغاضب إليهما معًا، وقال:

- ما الذي دفعكما لمغادرة المعسكر ليلًا دون إذن؟

أجاب "مالك" بسرعة:

- أردنا جمع الحطب، لنشعل النار لنتدفأ بها، فالجو كان شديد البرودة!

القائد بصرامة:

- وكيف وصلتما إلى الحدود الداغستانية؟

"مالك":

- لقد ضللنا الطريق، وافترقنا عن بعضنا بسبب الظلام، وقضيت وقتًا طويلاً في البحث عن "عمر"، فلم يكن باستطاعتي العودة للمعسكر بدونه، وأنا أعلم جيدًا أنه يجهل دروب وجبال هذه البلاد، وعندما طلعت الشمس، رأيتهم من فوق الجبل، وهم يأسرونه، ويأخذونه في سيارتهم إلى المعسكر. فعدت، وأبلغت القيادة في الحال.

اقترب القائد من "عمر"، وقال بغضب:

- وأنت! أتعلم كم تكبدنا من مشقة ورجال وذخيرة لننقذك من أيديهم؟! لقد أرسلنا كتيبة كاملة للبحث عنك!

ابتلع "عمر" ريقه بمزيج من الخجل والندم، وقال معتذرًا:

- آسف سيدي، مش هاكررها تاني!

القائد:

- لا تعتذر، فابن "خالد" ديساروف" يستحق أكثر من هذا!

نظر إليه "عمر" بدهشة، فابتسم القائد وقال:

- لا عجب أنك ابنه، فقد عدت إلينا بسيارة مملوءة عن آخرها بالأسلحة والذخيرة، أغلب مَن في المعسكر الآن يعتبرك بطلًا!!

نظر إليه "عمر" بذهول شديد. لقد عرف الآن فقط ماذا كان يحمل في السيارة التي كان يقودها، وحمد الله كثيرًا، وهو يتذكر عدد المرات التي نجا فيها هو والسيارة من الانفجار!

نظر إلى "مالك"، الذي خلا وجهه تمامًا من ابتسامته المميزة المحببة للنفس.

لم يشعر "عمر" في حياته بالخجل أمام أي إنسان، بقدر ما شعر به في هذه اللحظة أمام "مالك".

قطع أفكاره صوت القائد، وهو يقول:

- إنّ ما يحيرني حقًا، هو كيف أفلت بسيارتك من الكمين الذي أعددناه للسيارات الأربع، التي خرجت من المعسكر؟!

أتعلم أنك تذكرني بوالدك رحمه الله؟ يومًا ما سأحكي لك عنه وعن بطولاته.

تجاهل القائد الحيرة والدهشة في عيني "عمر"، وقال:

- ولكن كل هذا لن يعفيك من العقاب، على مخالفتك للأوامر، وخروجك من المعسكر ليلاً بدون تصريح.

التفت إلى "مالك" وقال:

– وأنت أيضًا ستعاقب معه، والآن انصرفا.

التف "عمر" مغادرًا مكتب القائد هو و"مالك"، عندما استوقفه القائد قائلًا:

– "عمر"، أظن أنك مدين "ل"مالك" بالشكر، فلولاه ما عرفنا طريقك!

هز "عمر" رأسه بخجل، ونظر إلى "مالك" الذي انصرف مغادرًا دون أن ينظر إليه.

قضى "عمر" فترة التأديب، محاولًا بكل وسيلة استرضاء "مالك" ومصالحته، لكن "مالك" كان غاضبًا بشدة، وكان يعبر عن غضبه بالصمت. لدرجة أنه كف حتى عن الغناء، وكاد "عمر" أن يفقد عقله أمام إصرار "مالك" على الصمت.

وانتهت فترة التأديب وعاد الاثنان إلى الخيمة لينالا قسطًا من الراحة، وعاد "عمر" إلى استجدائه، والتوسل إليه أن يسامحه، حتى كلمه "مالك" أخيرًا، وسأله بغضب:

– هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟ لماذا لم تبقَ في أحضانهم؟ ربما أعادوك إلى مصر؟

"عمر" بأسف:

– مقدرتش أصدقهم، ولا آآمن لهم!

"مالك" متهكمًا:

– حقًّا! وكيف اكتشفت ذلك الاكتشاف الخطير؟

"عمر":

– أنا مش بآمن للي بيلعبوا قمار.

"مالك" بسخرية لاذعة:

- انظر مَن يقول هذا؟ كيف لا تثق بهم وأنت تلعب الورق؟!

أكمل بضيق شديد:

- لا أدري كيف يقول القائد، أنك تذكره بوالدك رحمه الله!

"عمر" بندم شديد:

- أيوه ما بآمنش للي بيلعبوا قمار، لأنهم زيي، مايتآمنلهمش.

صمت "مالك" ولم يدرِ ماذا يقول، إلا أن حدة غضبه بدأت تهدأ، عندما استشعر صدق "عمر" وندمه، فهز رأسه بأسف.

وأكمل "عمر":

- أنا هربت منهم مع إنهم كانوا بيعاملوني كويس وأكلوني و...

قاطعه "مالك" بحدة:

- وأطلقوا عليك فتياتهم الجميلات، ليستخرجوا منك ما يريدون! سمعت هذه القصة من كل من وقع في الأسر، هذا في اليوم الأول فقط وبعدها...

صمت قليلاً ثم قال بسخرية:

- لماذا لم تبقَ معهم لتكتشف بنفسك؟!

تنهد بأسف وهو يكمل:

- لقد كنت أعتبرك صديقي!!

أطرق "عمر"، واحمر وجهه أسفًا وقال بخجل:

- كان لازم تعرف من الأول اني مانفعش أبقى صاحبك، أنا مدمن قمار.

نظر إليه "مالك" بصمت، واختفي الغضب من وجهه، ثم قال بعد فترة:

- لا شك أنك عشت حياة صعبة!

"عمر" بمرارة:

- صعبة!! بأنهي لغة؟ بلغة البلد اللي جيت منها، ولا بلغة البلد دي! بيتهيأ لي الفرق كبير قوي.

صمت "مالك" قليلًا، ثم نظر إليه وقد عادت ابتسامته الجميلة تضيء وجهه البشوش، وقال له بمحبة:

- ورغم كل شيء، لازلت أعتبرك صديقي، يمكننا أن نصبح أصدقاء مثل أبيك وأبي، لقد كانت صداقتهما عجيبة حقًا!

اقترب منه، وقال بحماس كبير:

- أتعلم؟... كنت أحلم دومًا أن يكون لي صديق، أحبه أكثر من أي شيء، وتبقى صداقتنا حية مدى الحياة، وحتى ما بعد الموت. ألم تسمع حديث النبي صلي الله عليه وسلم، أنّ الأخلاء المتحابين في الله، من الذين يظلهم الله بظله؟

اسمع... لقد قررتُ أن أجعلك شريكًا لي، في الشركة المعمارية التي أحلم بها، وسنبقي أصدقاء دائمًا مثل أبوينا، لقد تعاهدا على الوفاء والإخلاص، وأقسما أن يسمي كل منهما أول مولود ذكر له باسم صديقه، ويتـ...

صمت "مالك" فجأة، أسكتته النظرة التي رآها في عيني "عمر"، وتغير لون وجهه.

ضاقت عينا "عمر"، وقال بصوت ظهر فيه بوضوح أثر الصدمة:

- بس أنا ما اسميش "محمد"

ابتلع "مالك" ريقه بصعوبة ولم يستطع الرد!

أفاق "عمر" فجأة على حقيقة تاهت عن باله طويلًا، أو ربما تعمد نسيانها، لقد كانت له عائلة، أب وأم وإخوة وربما أخوات!!

أطرق برأسه طويلاً يفكر في صمت، ثم سأل "مالك" بصوت حزين:

- كان عندي اخوات قد إيه؟

أدرك "مالك" ما فعلته كلماته ب"عمر"، كما أدرك تمامًا أنه لن يستطيع أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فقال مباشرة، وصوته يقطر بالأسف:

- ثلاثة!!

ضحك "عمر" ضحكة ساخرة قصيرة، تمتلئ ألمًا ومرارة وهو يقول:

- ورابعهم كلبهم!

همه فين دلوقتي؟

"مالك" بأسىً:

- دفنهم أبي في مقابر أسرتنا!

اتسعت عينا "عمر"، وفغر فاه وقال بذهول:

- أبوك!! أبوك دفن صاحبه وأخته وأولادهم؟

نهض "عمر" ببطء، وهو لا يكاد يصدق وخرج من الخيمة، وحاول "مالك" أن يتبعه، لكنه أوقفه بصوت يمتلئ بالدموع، ودون أن يلتفت:

- عاوز أمشي لوحدي!

سار "عمر" لمدة طويلة، وهو لا يكاد يتبين طريقه، من كثرة الدموع التي ملأت عينيه، وتحولت إلى أنهار تجري على خديه، تؤججها النيران التي اشتعلت في قلبه.

لقد صدق أخيرًا...

كانت لديه أسرة كاملة أب وأم وإخوة، وربما أخت جميلة مثل "زهرة"، لو لم يُذبحوا ربما كان قد اختلف كل شيء!!

ربما أصبح مثل "مالك" و"زهرة"، يتنعم في ظل أسرة جميلة، تحبه وترعاه وتعلمه، وتحميه من طيشه وجنونه.

وقتها ما كان ليجرؤ أحد على أن ينعته بابن حرام!

لم يدرِ "عمر" كم من الوقت قضاه يبكي وحيدًا في البرد، بقلب يملؤه الحزن والندم والألم، ولم يخرجه مما هو فيه إلا يد "مالك"، التي ربتت على كتفه بحب، وصوته المملوء بالحنان، وهو يقول:

- "عمر"، هون عليك يا صديقي، فقد انقضت أعوام طويلة...

هيا بنا، لنعد إلى الخيمة، فقد أتى الليل وازداد الجو برودة.

استلقى "عمر" على فِراشه، ووضع كفيه المتشابكتين أسفل رأسه، لكنه لم يستطع النوم، بل ظل يفكر في أهله، ثم التفت إلى "مالك"، المستلقي على الفراش المجاور له وسأله:

- "مالك"، شكلها إيه؟

"مالك" بتساؤل:

- مَن؟!

"عمر" بشرود:

- أمي!

التفت إليه "مالك" وقال:

- ألم يُرك أبي صورتها؟

"عمر" بخجل:

- ماسألتهوش!

"مالك":

- عندما نعود إلى البيت سأريك صورتها، أتعلم أن "زهرة" تشبهها كثيرًا

التفت إليه "عمر" بدهشه واهتمام:

- "زهرة"!

عاد يحدق في سقف الخيمة وهو يقول بشرود:

- قد كده كانت أمي جميلة! هي ما...

قطع حديثه، عندما شق هدوء الليل صوت يشبه موتور سيارة نقل في الصيانة، فنهض من فراشه، وحاول أن يتبين مصدر الصوت، وأدرك أنه صوت شخير قوي يصم الآذان!

نهض "مالك" من فراشه بضيق، واقترب من "عمر" الذي وقف بدوره ينظر باتجاه مصدر الشخير، وبنظرات متواطئة بينهما أدركا ما عليهما فعله.

***

فجر اليوم التالي...

لم يستيقظ المعسكر على صوت أذان الفجر كما تعودوا، بل على صوت صراخ أجش، كما لو كان سارينة إنذار!

تجمع كل الشباب في ساحة المعسكر، وهبطت عليهم الدهشة والذهول عندما رأوا (حمدوف)، المارد الذي طرد "مالك" و"عمر" من الخيمة في أول ليلة لهما في المعسكر، كان مقيدًا في شجرة كبيرة بطريقة عجيبة، ملفوفًا بعناية في أغطيته، ومقيدًا في سريره بكمية كثيفة من الحبال، التفت حول السرير من أعلاه إلى أسفله، بحيث لا يظهر منها سوي رأس "حمدوف" فقط... أما السرير نفسه فقد كان يقف بشكل رأسي، ومثبت بالحبال في جذع الشجرة الكبيرة!

لم يستطع الشباب كبح جماح الضحك الذي انتشر بينهم، وهم يتعجبون ممن استطاع أن يفعل ذلك ب"حمدوف" العملاق، أما "حمدوف" فقد ازداد غضبه، وأخذ يصرخ بصوت جهوري ويتوعد بالانتقام!

وأخيرًا استطاع قائد المعسكر إسكاته، عندما أقنعه بأنه لن يفك قيده إلا إذا تعهد بعدم إثارة المشاكل، أو إيذاء أي فرد في المعسكر!

وبالفعل فك وثاقه بعد أن هدأ، ثم رحل متجهًا إلى مكتبه، لكنه توقف قليلاً في الطريق أمام "عمر" و"مالك"، ونظر إليهما نظرة ذات مغزى، وغمز لهما بعينه اليمنى وابتسم!

***

كان هذا المعسكر معدًا خصيصًا لمجموعة كبيرة من شباب الشيشان المتقاربين في العمر، وليس لديهم خبرة سابقة في القتال أو الحرب.

وكان يقوم بتدريبهم مجموعة من أمهر المجاهدين الشيشانيين والعرب، الذين ساهموا بدور كبير في تحرير الشيشان، وعملوا في تدريب الشيشانيين، على كل من الأمور العسكرية القتالية والمعلومات الدينية.

كانت الحياة في المعسكر شاقة، وكانت التدريبات مقننة وجادة ومتقنة ومتعددة، تدريبات بدنية، وتدريبات على الأسلحة المختلفة، وإطلاق النار وفنون القتال المختلفة.

ويتخلل اليوم محاضرات ودروس دينية، لتقوية الإيمان، والترغيب في الشهادة، وحب الوطن، ودروس في التاريخ الإسلامي، وقصص السابقين والسيرة النبوية.

وحلقات لتعليم اللغة العربية، لمن لا يعرفونها.

أما الصلاة، فقد كان لها عناية خاصة في برنامج المعسكر، فقد كانت تقام في جماعة، وعلى وقتها، وكان الدعاء والقنوت في كل صلاة، والتشجيع على قيام الليل، وإقامة مسابقات في حفظ وتفسير القرآن الكريم.

واستطاع "عمر"، بمساعدة صديقه "مالك"، أن يتحمل تلك الحياة الشاقة التي لم يعتد عليها ولم يعش مثلها أبدًا.

وكان "عمر" و"مالك" يتفننان في اختراع المقالب، والأفاعيل المضحكة، ويوقعان فيها "حمدوف" العملاق، الذي لم يستطع أبدًا، اكتشاف الشخص الذي يوقعه في المشاكل!

وشيئًا فشيئًا نمت صداقه متينة بين "حمدوف" وبين "مالك" و"عمر"، فلقد اكتشفا أنه برغم جسده الضخم، وسرعة غضبه المخيفة، إلا أنه يمتلك قلب طفل صغير، يمتلئ بالطيبة والسذاجة، واستطاع "مالك" و"عمر" الثأثير عليه وترويض سرعة غضبه، بالحب! ولم يعد "حمدوف" يستطيع الابتعاد عنهما، فكان الثلاثة يقضون كل أوقاتهم معًا.

***

كان "مالك" يرتدي ملابسه العسكرية، ويجهز سلاحه، ويستعد للخروج والانضمام لمجموعة من الشباب، لتنفيذ أحد الأوامر التي كلفهم بها قائد المعسكر، عندما سأله "عمر"، الذي كان مستلقيًا على فراشه، بعد أن انتهت نوبة حراسته:

- قائد المعسكر عربي، مش كده؟!

"مالك" بحماس وهو يعد سلاحه:

- انه أحد أتباع القائد "خطاب" رحمه الله.

قائد كتيبة الأنصار، إنها كتيبة المجاهدين الأجانب في القوقاز.

"عمر" بتساؤل:

- ومين "خطاب" ده؟

"مالك" بدهشة:

- ألم تسمع عنه أبدًا!

"عمر":

- سمعت عنه، بس بسأل مين هو؟

"مالك":

- إنه أحد المجاهدين العرب، الذين خرجوا من بلادهم للجهاد ضد الروس، وكونوا كتيبة تسمى كتيبة الأنصار، لكنه أروعهم على الإطلاق، فهو جسور لا يعرف الخوف. حارب الروس في أفغانستان وطاجيكستان وهنا. إنه بطل، أسطورة، كبّد الروس خسائر فادحة، سأكمل لك قصته عندما أعود...

انطلق "مالك" يجري ليلحق بزملائه في المهمة.

وخرج "عمر" من الخيمة متمهلًا وأخذ ينظر إلى "مالك" وهو يبتعد مسرعًا ثم تنهد وقال:

- العالم مليان بالمجانين!

- (قد يحتاج الإنسان لبعض الجنون، حتى يستطيع أن يتواءم مع هذه الحياة).

التفت "عمر" بحدة نحو المتكلم، فوجد أمامه قائد المعسكر يبتسم، فارتبك، لكن القائد اقترب منه وبادره بالسؤال:

- أنت في فترة الراحة الآن؟

هزَّ "عمر" رأسه موافقًا بحذر.

فقال القائد:

- من مصر أليس كذلك؟

قال:

- أيوه.

فقال القائد بابتسامة كبيرة:

- بلد الأزهر، ومعلمي القرآن، وشيوخ الجهاد، وأكابر الدعاة.

سأله "عمر":

- أنت من تلامذة القائد "خطاب"؟

رد القائد وهو يسير بجواره وكأنه صديقه:

- أنا من كتيبة الأنصار.

ولكن، أخبرني بصدق، من كنت تقصد بالمجانين؟ أنا لم أتعمد أن أستمع إليكما، لكن صوتك كان عاليًا.

قال بتردد وهو يسير بجواره:

- أنا بس كنت بستغرب، إزاي راجل يسيب بلده وأهله وفلوسه، علشان يروح أرض مايعرفهاش، ويحارب علشان يحرر وطن مش وطنه، وكل ده وبدون مقابل، ومن غير ما حد يطلب منه ده!

ضحك القائد وقال:

- سأقول لك سرًا لا تخبر أحدًا به، يومًا ما كنت أظنه مجنونًا، وكنت أسأل نفسي كثيرًا، لماذا يفعل هذا؟! وكيف يفكر؟...

ولمدة طويلة حيرني سؤال ماذا تعني كلمة وطن؟ هل هي الأرض التي نولد فيها، أم التي نعيش عليها، أم التي نموت وندفن فيها؟

أتعلم! ربما يكون الوطن أكبر بكثير مما نظن، أو حتى مما تستطيع عقولنا الضيقة أن تدركه...

اهتم لنفسك... ولا تنس أبدًا أنك ابن "خالد ديساروف"!

توقف "عمر" عن السير والتفت إليه بدهشة كبيرة، وعقد حاجبيه بتساؤل وهم أن يقول شيئًا.

لكن القائد تركه، ورحل مسرعًا، وظل "عمر" في مكانه، يحدق في الطريق الذي ذهب منه، وفي عقله أسئلة كثيرة...

يوم بعد يوم... كان "عمر" يشعر بأن شيئًا ما بداخله يتغير، شيء كبير يعجز عن التعبير عنه!

لقد كفَّ عن الشكوى، واعتاد البرودة القارسة، واندمج بين شباب المجاهدين، وأصبح لديه أصدقاء كثيرون.

وكانت من أمتع اللحظات بالنسبة إليه، عندما يعد هو و"مالك"، المقالب المدبرة المتقنة لأحد أصدقائهم في المعسكر، لإشاعة البهجة والمرح في أرجاء المعسكر، وكثيرًا ما وقعا في المشاكل بسبب تصرفاتهما الطائشة، وتعرضا للتوبيخ والتأديب من قائد المعسكر.

كان "مالك" و"عمر" يقومان بجمع الحطب والأخشاب، من التلال القريبة من المعسكر. وكان "مالك" يغني أغنيته الوحيدة:

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنـــــــيا

وعند زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائـــنا

زفر "عمر" بضجر شديد، وقال بتأفف وهو يجمع الأخشاب:

- يا ستار، دانت ممل، يا أخي خنقتني. هو انت معندكش غيرها؟ من ساعة ما عرفتك، و"عمري ماسمعتك بتغني إلا الأغنية السَّكة دي...

ضحك "مالك" وقال:

- إنها النشيد الوطني لبلادنا!

نظر إليه "عمر" بدهشة، وهز رأسه بعجب:

- دانت تغيظ، نفسي أسمعك بتغني أغنيه تانية.

جلس على صخرة كبيرة وهو يقول:

- ما تغني عن الحب، عن الجمال، جدد!!

قال "مالك" بمرح، وهو يحمل كومة من الحطب:

- "عمر"، ألم تفكر يومًا في الزواج؟

"عمر" بلا مبالاة:

– مين؟!... أنا؟! أنا ما بفكرش، أنا عايش حياتي زي ماهيه، تمشي زي ما تمشي، يوم بيوم...

نظر إليه وفي عينيه دهشة كبيرة:

– ماذا! ألم تحلم يومًا أن يكون لك بيتٌ خاص بك؟ وزوجة جميلة وأطفال يشاكسونك؟ أليس لك أي أحلام؟

"عمر":

– أنا مابفكرش بطريقتك دي، أنت عايش كل حياتك في الأحلام!

قال "مالك" بتفاؤل:

– و سوف أحقق كل أحلامي إن شاء الله.

سيكون لي شركة معمارية كبيرة، وستكون شريكي كما اتفقنا، وسأتزوج وأنجب أطفالاً... وتنازلاً مني سأمنحك شرفًا خاصًا، سأسمي أول أبنائي باسمك!

أتعلم أنني أحلم أن تكون فتاة أحلامي تمامًا مثل "زهرة"؟

التفت "عمر" إليه وقال بدهشة:

– "زهرة"؟!

"مالك":

– نعم، "زهرة" أختي، ليس من الضروري أن تشبهها في الملامح، ولكني أتمنى أن تكون بنفس أخلاقها وصفاتها.

وأنت... بمَ تحلم؟

هتف "عمر" بضجر:

– يا بني ما قلت لك إنا مبحلمش، أنا صاحي على طول.

تأمله "مالك" بدهشة وقال:

- وهل يستطيع الإنسان أن يعيش دون حلم خاص به، هدف يسعى لتحقيقه، قضية يدافع عنها ويموت في سبيلها!

ظل "عمر" واقفًا في مكانه يتأمله بصمت، يفتش بداخله عن كلمات يقولها فلا يجد، وكأنما خلا عقله من أية فكرة أو كلمة مناسبة.

تبدلت ملامحه فجأة، وعقد حاجبيه بشدة، وظهر في وجهه الذعر وهو يقول:

- ششت، سامع اللي أنا سامعه؟

"مالك" ينصت باهتمام، ويلقي ما بيديه من أخشاب، ثم يجري باتجاهه، وهو يقول بخوف:

- هيا لنبحث عن ساتر!

انطلقا يجريان، وهما يجران العربة التي تحمل الأخشاب، ليتواريا عن الأعين، وصعدا فوق تلة قريبة، واختبئا جيدًا وأخذا ينظران من موقعهما فوق التلة، فوجدا سيارة عسكرية صغيرة مكشوفة تحمل خمسة من الجنود الروس، قادمة من بعيد باتجاههما.

همس "مالك":

- يبدو أنها دورية استطلاع اخترقت الحدود!

"عمر" بخوف:

- هانفضل مستخبيين لحد ما تمر، وبعدها نرجع المعسكر.

ظل الاثنان يراقبان السيارة، وهي تقترب، ثم التفت "عمر" بحدة إلى "مالك"، عندما سمع صوت مدفعه يُجهز للإطلاق، فقال له بصوت خفيض:

- انت اتجننت! بتعمل إيه؟ مش لازم يحسوا بينا.

ضاقت عينا "مالك"، وارتسمت على وجهه ابتسامة، أشبه بابتسامة صياد يهم باصطياد فريسة، وقال بثقة:

- انهم فقط خمسة... هيا جهز سلاحك واستعد.

قال "عمر" بحدة، وبصوت خافت حتى لا يسمعونه:

- بتقول إيه؟ أنا عمري في حياتي ما قتلت حد!!

قال "مالك" ببطء، وعيناه تشعان ببريق مخيف:

- ولا أنا... ولكن هذا لا يهم، يكفي أن تتذكر ما فعلوه بأسرتك، وستجد السلاح ينطلق وحده.

"عمر" بإصرار:

- لا... هانرجع المعسكر، ونقول للقائد وهو يتصرف.

اتسعت ابتسامة "مالك"، واشتد بريق عينيه لمعانًا وهو يقول:

- لا داعي لكل هذا، نستطيع مفاجأتهم واصطيادهم بسهولة!

"عمر" بذعر:

- "مالك"، إياك تعمل حاجة وإلا هابلغ القائد، سيبهم يمشوا ولما نرجع المعسكر يحلها ربنا!

بدا على "مالك" وكأنه لم يسمع ما قاله "عمر"، وأخذ يصوب مدفعه جيدًا واقتربت سبابته من الزناد وهو يبتسم،

واتسعت عينا "عمر" برعب!!

***

نزع الذئب نظارته المعظمة من فوق عينيه، وهو يقول بغضب:

- إنهم يحاصرون القائد "حكيم" ومن معه!

"جوهر":

- مرت ثمانِ ساعات، والوضع كما هو لا يتغير.

الروس يحاصرونهم والقائد "حكيم" يرفض الاستسلام.

الذئب:

- يجب أن نساعدهم بأية طريقة، مستحيل أن نتركهم يسقطون في أيديهم.

"جوهر":

- أتسمع؟ انهم يستخدمون مكبرات الصوت.

الذئب بغضب:

- يطلبون منهم تسليم أنفسهم، الأوغاد يريدون تحطيم معنوياتهم.

نهض بسرعة من مكمنه فعاجله "جوهر":

- إلى أين أيها القائد؟

قال الذئب بعزم:

- لدي خطة... هيا بنا.

تسلل الذئب والمجموعة التي معه من المجاهدين، عبر ممرات جبلية ضيقة، والتفوا خلف القوات الروسية التي تحاصر القائد "حكيم"، وصعدوا إلى قمة الجبل المجاور للقوات الروسية، وفتحوا النار عليهم.

وحدث ارتباك شديد للقوات الروسية، عندما فوجئوا بالنيران تأتي من خلفهم، مما جعل القائد "حكيم" ومن معه، يطلقون النار بدورهم وبشكل مكثف.

وانقلب الموقف تمامًا، وبدأت القوات الروسية في التراجع، عندما شعروا أنهم محاصرين، مما أحدث فجوة كبيرة وسط القوات الروسية، واستطاع القائد "حكيم" ومن معه الخروج من الحصار.

فأخرج رجاله أولاً، ثم خرج من بعدهم، وبينما هو يجري أصابته طلقة في ساقه، فسقط أرضًا في منطقة مكشوفة للقوات الروسية.

رأي الذئب من فوق الجبل القائد "حكيم" وهو يسقط، فصرخ فيمن معه:

- احموا ظهري، وأطلقوا النار بكثافة!

نزل من الجبل عدوًا على قدميه بسرعة كبيرة، ووصل إلى القائد "حكيم"، وسحبه من ذراعيه خلف صخرة، وسأله بعجالة:

- كيف حالك؟

ابتسم القائد "حكيم" بألم وقال:

- الحمد لله، إصابة مباشرة في الركبة، لماذا أتيت؟ دعني وعُد إلى رجالك.

قال الذئب بحسم:

- سنعود معًا!

كثف المجاهدون إطلاق النار على القوات الروسية، وشتتوا انتباههم.

رفع الذئب رأسه، ونظر من خلف الصخرة، وعندما اطمئن قليلاً، حمل القائد "حكيم" فوق كتفه، وانطلق يجري باتجاه موقع المجاهدين.

عبر ثلثي الطريق، وفجأة...

أصابته طلقة في جانبه، فاهتزت خطواته وترنح بشدة، وسقط أرضًا هو والقائد "حكيم".

***

أطلق "مالك" النار على السيارة الروسية برغم اعتراض "عمر"، فقتل أحد الجنود، وأصاب إطار السيارة الخلفي.

توقفت السيارة، وترجل منها بقية الجنود الروس، واختبئوا خلفها يحتمون من طلقات "مالك"، وبدأوا يطلقون النار باتجاه "مالك" و"عمر"، الذي ارتعب بشدة، وأمسك سلاحه وأعده للإطلاق. لكنه لم يطلق منه رصاصة واحدة!!

أما "مالك" فأخذ يطلق عليهم النار، لكنه لم يستطع إصابة أحد آخر، فقد كانوا مختبئين خلف السيارة، وبدأ الغضب يسيطر عليه، و"عمر" يصرخ في أذنه برعب:

- مش هانقدر نهزمهم، يلا نهرب!

ارتعدت أطرافه، عندما سمع من خلفه صوت سلاح يُعد للإطلاق!

وكان "مالك" الذي سمع نفس الصوت، أسرع بكثير في ردة فعله

فالتفت بحدة، ليجد أمامه اثنين من الجنود كانا في السيارة، والتفا حول الجبل ليطوقا "مالك"، بعد أن عجزوا عن إيقاف نيرانه الكثيفة.

فجأة صرخ "مالك" صرخة عنيفة غاضبة، وهو يميل على جسد "عمر" الذي تحول إلى صنم ذاهل ووجهه كتلة من الرعب:

- أوغاد!

واعتصر سلاحه عصرًا

ولكن...

رصاصاتهما كانت تحمل ل"مالك" أكثر من مجرد موت!

كانت تحمل معها رياح الجنة، ولم يشأ "مالك" أن يرد الهدية، بل تلقاها بمجامع قلبه، كحبيب يشتاق سنينَ ليضم حبيبه!

أما "عمر" فقد أصيبت أطرافه الأربعة بالشلل للحظات، وهو يرى "مالك" يحميه بجسده، ويتلقى عنه نصيبه من طلقاتهما، في صدره مباشرة.

جن "عمر" عندما انسكبت دماء صديقه الوحيد فوق ملابسه، وكأنما كان لون الدماء الأحمر القاني هو الذي أيقظه من ذهوله، وفجرت كل شيء في عقله وحررته من قيود الخوف، لتتحرك كل عضلة في جسده، وأولها سبابته التي عصرت زناد سلاحه عصرًا حتى كادت أن تكسره.

وتلقي الجنديان الرصاصات في جسديهما، وبعدها التفت "عمر" حيث السيارة التي خرج من خلفها البقية المختبئة، واقتربوا من التلة بعد أن اطمئنوا لقيام زملائهما بالقضاء على المقاوم وسلاحه الحاصد.

وجرى "عمر" بكل قوته وهو يصرخ باسم "مالك"، ورصاصات مدفعه تحصد الجنود الروس الذين فوجئوا بوجود "عمر"، واختفاء زميليهما.

ظل "عمر" يطلق النار حتى أرداهم جميعًا، ولم تتوقف أصابعه عن الضغط على الزناد إلا عندما فرغ سلاحه تمامًا.

ألقي بسلاحه من بين يديه، وعاد إلى صديقه وحمل رأسه بين يديه، وأسندها إلى ساقه، ووضع يده على صدره، محاولًا إيقاف الدماء التي سالت بغزارة، وهو يقول والأسى والألم يقطر من كلماته:

- "مالك" صديقي، اطمئن انت بخير!

هأنقلك المعسكر وهايعالجوك، لازم يعالجوك، انت هاتخف، لازم تخف!

ابتسم "مالك" كعادته ولكن ابتسامته هذه المرة كانت شاحبة، وانتصر الألم على ملامح وجهه الباسم دائمًا، لكنه تماسك من أجل صديقه وقال:

- لماذا أرى وجهك عابسًا؟! ابتسم يا صديقي، هل...
غلبه الألم فصمت قليلاً ثم قال:
- هل تريدني أن أغيظك، وأغني لك في ليلة مولد الذئب؟!
حاول الضحك لكنه لم يستطيع:
- يبدو أنك ستعود للبيت بدوني.
سالت دموع "عمر" غزيرة، وهو يقول بصوت حزين:
- اسكت، ما تقلش كده. هاترجع معايا، مش ممكن أرجع من غيرك أبدًا، انت فاهم؟!!
مش ها تموت أبدًا!
"مالك" بضعف:
- كلنا سنموت يا صديقي، المهم هو كيف سنموت؟
أوصيك بأمي و"زهرة" والصغيرين، وأخبر أبي أنني أصبحت ذئبًا يفخر به!
انتحب "عمر"، وتساقطت دموعه وقال بعناد:
- لا. مش ها تموت يا صديقي، هاتفضل معايا لحد ما تحقق أحلامك، هانحقق أحلامنا سوا، فاكر؟
أحلامنا يا "مالك"، هانحقق أحلامنا سوا...
"مالك":
- سامحني يا صديقي لأنني أخفيت عنك أكبر حلم في حياتي، إنه حلم تتضاءل بجانبه كل الأحلام!
حلمي أن أموت شهيدًا وأكون مع أخويّ في الجنة!

"عمر" بحسرة:

- لا، ماتسيبنيش لوحدي، إنت صديقي الوحيد!

لم يرد "مالك"، ولكن شخص بصره إلى السماء، وقال بشرود:

- "شامل"، "خالد"، اشتقت إليكما!

صمت قليلًا ثم قال:

- ماذا تريدني أن أقول يا "خالد"؟

تلفت "عمر" حوله فلم يجد مخلوقًا غيرهما فعقد حاجبيه وهو يراقبه بدهشة

رفع "مالك" سبابته اليمنى إلى السماء وقال:

- أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله.

وفاضت روحه إلى بارئها وسقطت يده وتعلقت عيناه بالسماء، واستقرت على وجهه الطفولي الجميل، أروع ابتسامة يمكن أن يراها إنسان!

صرخ "عمر" بلوعة وهو يحتضنه بقوة:

- "مالك"... أخويا، صديقي، حبيبي، ماتسيبنيش لوحدي!

لازم ترجع معايا. لازم نرجع البيت سوا، مش هارجع من غيرك.

***

(6)

رفع الذئب رأسه من الأرض، وهو يشعر بآلام رهيبة في جانبه، نظر إلى القائد "حكيم" الذي أمسك به وهو يقول:

- هل أنت بخير؟

هزّ الذئب رأسه ولم يتكلم.

رأى المجاهدون الذئب والقائد "حكيم" وهما يسقطان، في منطقة مكشوفة للروس، فكثفوا إطلاق النار بصورة أربكت الروس، وأدَّت إلى تراجعهم قليلًا، فتقدم المجاهدون عدة خطوات ليحموا القائدين.

تحامل الذئب على نفسه، ونهض بصعوبة، وأمسك بذراع القائد "حكيم" وأخذ يجره باتجاه موقع المجاهدين، تحت ساتر النيران التي يطلقونها،

فصرخ "جوهر" الذي كان يقف في المقدمة:

- سأنزل إليهما، احموني.

نزل من الجبل يجري بكل قوته ومعه "أحمد"، حتى وصلا إلى سفح الجبل، فوجدا الذئب وصاحبه قد وصلا قبلهما، فأخذاهما إلى منطقة آمنة.

وفشل الحصار الذي دام ثمانِ ساعات، وانسحبت القوات الروسية من الموقع تجر أذيال الخيبة!

وساعد "جوهر" و"أحمد" القائدين، على الوصول إلى موقع المجاهدين.

ورفض الذئب الاعتماد على كتف "جوهر"، وتحامل على نفسه حتى وصل إلى الموقع على قدميه.

فسأله "جوهر" بقلق:

- كيف حالك؟

قال الذئب بهدوء:

- إصابة بسيطة، لا شيء خطير.

كشف "جوهر" عن مكان الإصابة وقال بجزع:

- يا إلهي، أنت مصاب بشدة!!

نظر إلى بقية المجاهدين وقال:

- يجب أن ننقلهما إلى أقرب مستشفى ميداني.

نجح الشباب في نقل القائدين للمستشفى، وهناك، قام الأطباء بمعالجة الذئب، واستخراج الرصاصة من جانبه، وأصر "جوهر" على البقاء معه حتى يطمئن عليه.

ولم يلبث أن رأي الطبيب فسأله بقلق:

- كيف حاله الآن؟

الطبيب:

- الحمد لله هو الآن بخير، عجيب أمر هذا القائد. كيف تحمّل كل هذا؟! لقد استخرجتُ من جسده رصاصة عيار ٧ , ١٢ مم!!

"جوهر" بدهشة:

- ماذا؟!... إنها ذخيرة تستخدم لاختراق المدرعات والمواقع الحصينة، ولكنها تجعل اللحم البشري مثل اللحم المفروم، والغريب أنه لم يُظهر لنا أي دليل على الألم، بل تحامل على نفسه، وأنقذ القائد "حكيم".

الطبيب بدهشة:

- مَن هذا القائد؟ وكيف يتحمل جسده كل هذا؟

"جوهر":

- هو دائمًا يُدهشني! إنه يقوم الليل كل ليلة ولا أراه إلا صائمًا، لم أشاهده يأكل أو ينام، لا أعرف كيف يعيش!!

كما أنه قليل الكلام دائم الشرود حزين!

الطبيب بعجب:

- تُري. ما الذي حدث له في حياته، ليصبح هكذا؟

***

لم يستطع "عمر" أن يتذكر أبدًا، كيف عاد ب"مالك" إلى البيت؟ ولا ماذا ركب ولا من ساعده.

كل ما استطاع أن يتذكره، هو أنه حمل جسد "مالك" الشهيد على كتفه وانطلق يجري ويجري، ويتعثر ويسقط، ثم ينهض ويحمله ويجري من جديد، وهو يبكي وينتحب، ودموعه تُغرقه.

حتي جفت دموعه تمامًا، تاركة خطين واضحين على خديه، ولم يعد يجد دموعًا يذرفها.

لم يتوقف "عمر" عن الجري إلا عندما فتح "محمد" باب البيت، ونظر إليه وهو يحمل جسد "مالك" الشهيد بين ذراعيه.

نظر إليه "محمد" طويلًا بصمت، وتغير لون وجهه، وتفجر الحنان من عينيه، ونطقت ملامحه بالألم واللوعة، لكن عينيه لم تذرفان دمعة واحدة!

اقترب من رأس "مالك" ومسح على شعره بحب كبير.

وتأمل "عمر" ملامح وجه "محمد" طويلًا، وفهم أخيرًا لماذا لا تبكي الذئاب!

لقد جفت دموعها من كثرة البكاء والألم.

حمل "عمر" و"محمد" على أكتافهما جثمان "مالك" المغطى بعلم بلاده، ووجهه مكشوف، يحمل نفس ابتسامته الجميلة، وخلفه يسير المجاهدون بصمت مهيب.

وبين لحظة وأخرى ينظر "عمر" إلى "محمد" بدهشة وعجب، فهو صامت تمامًا، ولم يذرف دمعة واحدة حتى الآن... وعندما وصلوا إلى المقابر كان "محمد" هو الذي يقوم بكل شيء، فهو الذي جهز القبر بنفسه، ونزل فيه، ثم نظر إلى "عمر" ومد إليه ذراعيه، ليناوله جسد "مالك".

لكن "عمر" تسمر في مكانه، وظهر على وجهه الألم، وهو ينظر إلى "محمد" بذهول واستنكار، وهو يفكر... كيف له أن يُدخل صديقه بيديه إلى التراب؟

أومأ الأب إليه. لكنه لم يتحرك. فسارع المجاهدون بحمل الجثمان، وناولوه للأب الذي احتضنه بقوة، ونظر في وجهه الجميل نظرة طويلة حزينة، وقبّل جبينه، ثم أرقده بحنان.

كان "عمر" يلقي النظرات الأخيرة على صديقه، والحزن وألم الفراق يكاد أن يفتت قلبه.

وبعد أن انتهي "محمد" من عمله، وقف أمام القبر بجوار "عمر"، الذي قال بعد صمت طويل:

- الآن فقط فهمت، ماذا يعني أن تفقد أغلى الأصدقاء!

زفر الأب زفرة حارة، بحرارة اللهيب المشتعل في أعماقه، ثم وضع ذراعه على كتف "عمر" وقال:

- هيا لنذهب إلى البيت يا بُني!

التفت إليه "عمر" بكل جوارحه، ونظر إليه نظرة طويلة، وهو يفكر... (بُني) لأول مرة يقولها، ولأول مرة يستشعر "عمر"، كل هذا القدر من الحب في صوته.

ارتمي "عمر" بين أحضانه، ليشتم فيه حنان "مالك"، أغلى إنسان عرفه وأغلى إنسان فقده.

واحتضنه الأب بقوة، عله يهدئ من حريق فؤاده لفقد الأحبة، أو يداوي جراح قلبه المكلوم.

في البيت... جلس "عمر" مطأطِئَ الرأس حزينًا.

ثم رفع رأسه ببطء وقال بألم:

- لماذا مات؟

تعجب "عمر" من نفسه!

لأول مرة يتكلم بهذه الطريقة، كيف ينطق لسانه بالفصحى، وكأنما لم يعرف غيرها في حياته!

في لحظة واحدة نسي كل ماضيه، وكأنما عاش حياته كلها على هذه الأرض، في لحظه واحدة انقلب عقله وقلبه ولسانه، ليتحول إلى ذئب شيشاني.

في لحظة واحدة نسي "عمر الديب"، ليعيش "عمر ديساروف"

التفت إليه الأب ببطء:

- "مالك" لم يمت، إنه شهيد!

قال "عمر" بلوعة وكأنه لم يسمع:

- لماذا قتلوه؟ لماذا مات بهذه الطريقة؟

تنهد الأب بحرارة وقال:

- لأنه تمناها.

هبّ "عمر" من مكانه وقال بانفعال:

- لم يكن يريد الموت، كان يحب الحياة بجنون، لقد عشت معه أيامًا طويلة تشاركنا فيها الطعام والشراب، الألم والسعادة، كان يحكي لي أحلامه، كان يحلم ببيت صغير وزوجة جميلة وأطفال...

لماذا لم يحقق حلمه؟

الأب بهدوء:

- ومن قال إنه لم يحقق حلمه؟ لقد اتخذ أقصر وأسرع الطرق لتحقيق الأحلام، لقد مات شهيدًا من أجل الوطن!

صرخ "عمر":

- اللعنة على الوطن... أي وطن هذا! الأرض، البيوت، الجبال!

"مالك" أغلى من كل هذا، لماذا نُقتل من أجل وطن تموت فيه الأحلام؟

الأب بعزم:

- عندما يُستباح الوطن يُستباح كل شيء، وتصبح الدنيا سوقًا كبيرًا للنخاسة، فيه الإنسان أرخص من تراب الأرض.

أتاه صوت "زهرة" الحزين:

- لقد آثر "مالك" الموت على حياة أرخص من التراب، لقد نال ما تمناه، أنا سعيدة لأجله.

هتف "عمر" غاضبًا:

- أتقولين هذا؟ وهو الذي كان يحبك أكثر من أي شيء؟ لقد كان يتمنى زوجة مثلك!

قالت "زهرة" ودموعها تسيل على خديها:

- وأنا أحبه وسأفتقده كثيرًا، ولكن لا يجب أن يتحول الحب إلى أنانية وقيد لمن نحب، فنحن لا نحزن عليهم بقدر ما نحزن لأنفسنا، نحزن لفقدنا لهم ووحدتنا من بعدهم، إن كنا نحبهم حقًا فيجب أن نتخلى عن أنانيتنا، ونتمنى لهم السعادة التي لم ينالوها في هذه الحياة!

لقد نال "مالك" أقصي ما تمنى!

الشهادة مثل أخوينا وأمنا

"عمر" بدهشة:

- هو الذي أخبرك بهذا؟

"زهرة":

- لم يكن بحاجة لأن يخبرني حتى أعرف ما يفكر فيه...

إنه أخي.

التفتت إليه وقالت:

- وأنت أيضًا كنت تعرف.

انتفض بغضب وهتف قائلًا:

- لا... لم أكن أعرف.

"زهرة" بشجن حزين:

- بلى كنت تعرف، لكن بداخلك طفل عنيد يخشى أن يصدق الحقيقة

صمت "عمر" تمامًا ولم يستطع أن يرد... وكأنّ "زهرة" قد كشفت كل ما في نفسه.

وطال صمته وهو يفكر بعمق، وفجأة هبَّ من مكانه وفتح الباب فاصطدم بوجهه الهواء البارد، وسمع "محمد" يقول:

- "عمر"، إلى أين تذهب؟

"عمر" بغضب:

- سأثأر له، يجب أن يدفعوا الثمن غاليًا.

"محمد":

- وكيف ستطفئ نيران ثأرك؟ تقتل عشرة؟... عشرين؟... مائة؟! وبعد؟

لن يحقق هذا ما كان يحلم به "مالك"

ما لهذا نحارب، إننا لا نسعى إلى الانتقام.، بل نسعى إلى الحرية يا ولدي

وهذا هو ما لا يريدونه لنا.

***

(أيها القائد)

غادر الذئب شجونه وشروده، والتفت إلى "جوهر" الذي يقود السيارة بجواره، وهو يقول بإشفاق:

- ما زلت شاردًا حزينًا كعادتك!! أليس هناك نهاية لأحزانك؟!

أدار الذئب وجهه ونظر إلى الطريق المظلم بصمت، فقال "جوهر" بلهجة اعتذار:

- عفوًا لم أقصد أن أتدخل فيما لا يعنيني، ولكن! ولكنك صغير السن وتحمل فوق رأسك همومًا لا يتحملها جبل.

قال الذئب باقتضاب، منهيًا الحوار الذي كان من طرف واحد:

- وصلنا إلى الموقع.

ابتلع "جوهر" كلماته بحرج، وأوقف السيارة الصغيرة التي يقودها، وفيها الذئب واثنان آخران من كتيبته، وخلفهم ناقلتان كبيرتان، واحدة تحمل الجنود، والثانية تحمل العدد والآلات والأسلحة والذخيرة.

نزل "جوهر" من السيارة وهو يقول:

- لقد درست المنطقة جيدًا، هذا الجبل خلفه طريقٌ للإمدادات يصل إلى قاعدة عسكرية، نستطيع اصطيادهم من فوق هذا الجبل وقطع طريق إمداداتهم.

الذئب:

- حسنًا، ولكن أريد أولاً تمشيطًا دقيقًا للمنطقة وما حولها، يجب أن نتأكد أنها آمنة تمامًا.

انتشر المجاهدون وأخذوا يمسحون المنطقة، وهم يحملون أسلحتهم المجهزة والمعدة للإطلاق، ثم بدأوا يصعدون الجبل، يتقدمهم الذئب، وأخذوا يفتشون الجبل تفتيشًا دقيقًا، فلم يتركوا حجرًا ولا حفرة إلا وفتشوها.

دخل الذئب أحد الكهوف، وأضاء كشافه القوي، وأداره في أرجاء الكهف الصغير، وشعر من الآثار الموجودة على الأرض، أن هذا الكهف يحمل آثار شخص دخله قبلهم بمدة قليلة!

شعر بحركة مريبة فقفز بحركة سريعة إلى جانب الكهف، وأطلق وابلًا من النيران ومع الطلقات السريعة التي دوت في الكهف بصوت يصم الآذان، سمع صوتَ صُراخ نسائي يهتف:

- توقف، لا تطلق النار.

أوقف الطلقات، وبدأ يتبين مصدر الصوت بحذر، فرأى على ضوء الكشاف امرأة شقراء، تخرج من خلف صخرة كبيرة في جانب الكهف.

قالت بصوت مذعور وهي تلهث:

- توقف. أنا صحفية!

كان المجاهدون قد تجمعوا على صوت طلقات النار.

أخرجت الفتاة هويتها، وهي تتأمل الوجوه المتشحة بالسواد، والعيون التي تنظر إليها في ترقب وحذر، وانتابها الخوف، لكنها تماسكت أمامهم

تفحص الذئب بطاقتها على ضوء المصباح الكشاف،

والصحفية تلهث من الخوف والانفعال وهي تقول:

- أنتم مليشيات المقاومة؟

جوهر:

- نحن المجاهدون... أهل هذه البلاد.

تنهدت بعمق وقالت:

- آه، كنت أبحث عنكم من مدة طويلة.

مدت يدها بالسلام نحو الذئب، الذي كان أقرب الموجودين إليها، وهي تقول:

- (كاترين استريميسكي)، صحفية.

مد الذئب يده نحوها، فظنت أنه سيسلم عليها، لكنها فوجئت بأنه يرد إليها بطاقتها، وسمعته يقول من خلف لثامه الأسود، الذي لا يُظهر سوى عينيه:

- وما الذي أتى بصحفية في هذا المكان!

أصابتها الدهشة من معاملته الجافة ولهجته الخشنة، لكنها تجاهلت ذلك وهي تقول:

- أنا في مهمة صحفية هنا مع فريق من الصحفيين، وكنا في القاعدة العسكرية الروسية القريبة من هنا، لعمل لقاءات وأحاديث مع الجنود.

ابتسمت وهي تكمل:

- لكنني هربت من المعسكر الروسي، وسرت حتى وصلت إلى هنا، وعندما هبط الليل اختبأتُ في هذا الكهف.

الذئب بخشونة:

- ولم فعلتِ ذلك؟

قالت بسرعة:

- لأنني كنت أبحث عن المقاومة، الجميع يلتقي الجنود الروس ويتتبع أخبارهم وينشرها، وأما المليشيات، فلا أحد تحدث إليهم أو حتى سمع وجهة نظرهم، وأنا أريد أن أحظى بهذا السبق.

التفت الذئب مغادرًا الكهف بغضب دون أن يتكلم، ونزل من الجبل بسرعة وخلفه "جوهر" الذي سأله:

- ماذا سنفعل بها أيها القائد؟

قال بضيق:

- سأصطحبها لأقرب قرية بها ممثلو اللجان الدولية.

هتف "جوهر":

– أتعلم كم تبعد عن هنا؟! المخاطرة كبيرة، الأفضل أن نأخذها لأقرب معسكر للمجاهدين، وهم يتولون إعادتها.

الذئب بتجهم:

– لو فعلنا ذلك لامتلأت صحف الغد بوصفنا بكلمات مثل الإرهابيين الخاطفين، ولتحولت قصتها لأفلام تُبكي العالم عن المتوحشين الذين اختطفوا الصحفية البريئة!

"جوهر":

– لكنها عندما تعود، بالتأكيد ستوضح لهم الأمر وتنشره.

الذئب:

– قد لا يحالفنا الحظ لهذه الدرجة، وتظل حية حتى تصل إلى بلادها وتنشر الحقيقة... لذلك يجب أن أعيدها الآن وفورًا.

"جوهر":

– ولكن الطريق طويل وخطر وقد يرصدون السيارة وعندها...

الذئب:

– على الأقل عندها لن تكون في معسكراتنا، ولن يستطيع أحد أن يقول أننا اختطفناها أو عذبناها.

وصل إلى مكان السيارات وقفز إلى السيارة الصغيرة وقال بلهجة آمرة:

– أحضرها إلى هنا، وسأقوم بإعادتها بنفسي واستمروا أنتم في تنفيذ الخطة، تعلم موعد ومكان اللقاء مع مجموعة القائد "سليم"،

يجب أن تنجز الخطة بدقة، هل فهمت؟

هتف "جوهر" بانفعال:

- ولكنْ هناك خطرٌ كبير على حياتك، كما أنك قائدنا، فلتختر أحدًا آخر لاصطحابها.

قال الذئب بخشونة:

- نفذ الأوامر!

التفت "جوهر" باستسلام لتنفيذ الأمر، لكنه توقف عندما سمع الذئب يناديه: - "جوهر"...

التفت إليه فقال الذئب بتأكيد:

- أنت القائد من الآن!

صرخ "جوهر" بدهشه عارمة:

- لا، مستحيل... أنا؟!!

قاطعه الذئب قائلا بثقة:

- أعتمد عليك.

ابتلع "جوهر" ريقه بصمت وعجب، ولم يدر ما يقول.

وصلت "كاترين" إلى السيارة التي جلس الذئب خلف عجلة قيادتها، وقال لها باقتضاب:

- اركبي.

فسألته بدهشة:

- إلى أين؟

قال، ووجهه ينظر إلى الطريق:

- سأقلك لأقرب منطقة فيها ممثلو اللجان الدولية والصليب الأحمر.

هتفت "كاترين" باعتراض:

- ولكني لم أتم مهمتي هنا بعد!

زفر بضيق وقال بصوت أصابها بالرعب:

- اركبي!

ركبت بسرعة، وانطلق الذئب بالسيارة، وخلفه عيون المجاهدين.

اقترب "أحمد" من "جوهر" وسأله:

- لماذا لم يأمر أحدًا منا بإعادتها؟

هل يخاف علينا الفتنة؟!

قال "جوهر" وعيناه على السيارة التي ابتعدت بمسافة كبيرة:

- أظنه يخشى أن يتحدث أحد منا معها، فتستطيع استدراجه للبوح بأسرار محظورة.

تنهد "أحمد" بحرارة وقال:

- وهل تظنه يستطيع أن يصمد أمامها؟

"جوهر" بتهكم:

- هل اختل عقلك؟! ألا تعلم من هذا؟ إنه الذئب...

كل ما أرجوه هو ألا يُفقدها عقلها حتى تصل سالمة!

التفت خلفه ينظر إلى الجبل، وزفر بعزم قائلًا:

- هيا، فلدينا عمل يجب أن ننجزه.

***

لم ينطق الذئب بكلمة واحدة منذ انطلقت السيارة، وأخذت "كاترين" تتطلع إليه من حين لآخر، تنتظر أن يسألها، أو حتى ينظر إليها، لكنه لم يفعل.

فقالت:

– أظنك تتساءل لماذا لم أخف منكم، برغم ما يشيعه الروس عنكم من أنكم إرهابيون متوحشون آكلو لحوم البشر، وأنكم تتلذذون بتعذيب وإرهاب الآخرين؟

انتظرت أن يرد، لكنه لم يلتفت حتى إليها!

فقالت تستحثه:

– أنت تتعجب!! تتعجب أليس كذلك؟

تجاوزتْ صمته، وقالت كما لو كان ردَّ عليها:

– لأنَّ من عادتي أن أقرأ كل ما كُتب عن أي موضوع أريد أن أكتب عنه،

وأشد ما أثار عجبي ما كتبه عنكم "سولجنستين" وكذلك ما كتبه المؤرخ الأوروبي ("روبرت كونكويست" في كتاب " قتلة الأمم") ألا تريد أن تعرف ما قاله عنكم؟!

أكملت عندما لم يرد:

– كتب: "لقد كانوا أسودًا ذوي شهامة عسكرية، تجلت في معاملتهم للأسرى والجرحى من الأعداء، ولا غرو في ذلك، فقد كان القادة هم العلماء، الذين يقاتلون دفاعًا عن أرضهم ودينهم، حتى آخر جندي وآخر سيف."

أليس غريبًا أن يكون هذا هو رأي أعدائكم فيكم؟!

لهذا سعيت لمقابلتكم دون خوف، كنت أريد أن أتأكد من مدى صدق هذه العبارة.

صمتت قليلاً لتفسح له المجال ليتكلم، لكنه لم يفعل، فزفرت بغيظ وقالت:

– الجو هادئ تمامًا على عكس ما كنت أتوقع.

استفزها بشدة صمته الغريب، فنظرت إليه بدقة رغم الظلام الذي لم يخفف منه سوي ضوء القمر، وانعكاس مصابيح السيارة القوية فوقعت عيناها على شيء يلمع في يده، دققت النظر فوجدته خاتم زواج في بنصره الأيسر، فسألته بدهشه:

– متزوج!! عجبًا، رغم أنَّ سنك صغير...

أتساءل من هي المرأة، التي تستطيع أن تتحمل حياة كتلك التي تحياها؟

لم تستطع أن تري ارتعاشة عضلات وجهه، التي توارت خلف لثامه الأسود، لكن صمته أصابها بالغيظ الشديد، فقالت بضيق:

– لا أفهم كيف يمكن لامرأة طبيعية، أن تقبل بالزواج من رجل مثلك، لديه كل هذه القدرة على الصمت؟

غمرته أمواج من الحزن من جديد، كان رأسه يجيش بالذكريات، ويملأ أذنيه صوت ضحكات قادمة من بعيد، ويعقبها صوت جميل حبيب إليه، أشعل الحنين في قلبه، وهو يهتف بحب:

– أنت كما أنت لن تتغير أبدًا، منذ أول يوم في زواجنا وأنت تسألني نفس السؤال!

"عمر" بحب:

– وحتي الآن لم تجيبِني...

أخبريني بصدق... كيف لفتاة مثلك أن تقبل بالزواج ممن هو مثلي؟

ابتسمت وهي تملأ عينيها بملامح وجهه:

– ربما أرى فيك ما لا يستطيع الآخرون رؤيته!

"عمر" ساخرًا:

– إذن فهل أصبح كل الناس من العميان؟

ضحكت وقالت:

– لا يا حبيبي، ولكنهم لا يملكون قلبي، ولا عيني ليروك بها.

تنهد بعمق وقال بشرود:

– كم كان خالي رجلاً عظيمًا – رحمه الله–... كان يُعطي بلا حدود، منحني أغلى ما لديه، وأخشى ألا أكون جديرًا به.

اتسعت ابتسامتها قائلة:

– رأى فيك ما رأيته أنا.

تنهدت بحرارة وهي تكمل:

– ولكن بداخلك طفل عنيد، يخشى أن يصدق الحقيقة!

أتعلم أنك تشبهه كثيرًا، أقصد في طريقة التفكير والتصرفات.

يبدو أن الفترة التي قضيتها بصحبته، جعلتك تتوحد معه وتتشبه به في أشياء كثيرة!

"عمر" بحب:

- وأكثر ما أخذت منه هو حبه الكبير لكِ.

(أيها القائد... هل تسمعني؟)

أفاق من شروده على صراخ "كاترين" المغتاظ، فالتفت إليها بدهشة، فقالت بغيظ شديد:

- كنت قد بدأت أظن أنك فقدت السمع كما فقدت الكلام، فمنذ أن انطلقنا بالسيارة من ساعة ونصف، وأنت لم تفتح فمك أبدًا! لا أدري من أين لك بكل هذه القدرة الجبارة على الصمت!

عقد حاجبيه، وأنصت باهتمام كبير، ثم أوقف السيارة فجأة، فارتج جسدها بعنف، وهتفت:

- ماذا حدث؟

قال بتوتر:

- لقد رصدوا السيارة، ترجلي بسرعة!

غادرت السيارة، وانطلقت تجري خلفه بسرعة، عندما وصل إلى مسامعها صوت هدير طائرة مروحية، وتساءلت في نفسها، كيف استطاع أن يلاحظ صوت المروحية من هذا البعد؟

ظلا يجريان حتى وصلا إلى منطقة جبلية، واختبئا خلف الصخور.

نظر الذئب من مكمنه، فوجد ضوء المروحية القوي مسلطًا على السيارة، ثم أخذت المروحية تجول في المنطقة بكشافاتها القوية، بحثًا عمن كانوا في السيارة.

أخذ الذئب ينظر حوله يبحث عن مكان أكثر أمنًا، ثم قال ل"كاترين":

- اتبعيني!

سارت خلفه بهدوء، منحنية الرأس، وهي تخشى أن يعلو صوت دقات قلبها المرتعب، ويصل إلى مطارديهما، حتى وصلا إلى ممر ضيق في الجبل، فسألته "كاترين" بخوف:

- ماذا سيفعلون بنا إن وجدونا؟

قال بثقة:

- إن شاء الله لن يجدونا!

قالت بقلق:

- لماذا يطاردوننا؟ وكيف علموا بموقع السيارة؟

قال بهدوء غريب، وبصوت يشع بالفخر والثقة:

- لا يطاردوننا نحن!

لا شك أنَّ "جوهر" نجح في مهمته، وأثار كلَّ الكلاب المسعورة، فخرجت تبحث عن أي فريسة، تنفث فيها نيران انتقامها وغلها!

قالت برعب:

- أتمنى ألا نكون نحن الفريسة!

وجهت المروحية بحثها إلى الناحية الأخرى من الطريق.

وبعد أن قامت بعدة حركات دائرية فوق السيارة الخالية، ابتعدت لتبحث في مكان آخر.

وعندما اطمئن الذئب لابتعادها، خرج من مكانه وبدأ بعبور الممر بسرعة وحذر، وكاترين خلفه حتى وصلا بعد مدة طويلة إلى الجانب الآخر من الجبل.

ألقت "كاترين" بجسدها المنهك على الأرض، لتستريح من عناء عبور الممر غير الممهد، والمليء بالصخور، ثم قالت وهي تلهث بعد أن ابتعدا عن المروحية:

- والآن، ماذا سنفعل؟

قال باقتضاب:

- سنمشي!

هتفت بدهشة:

- ماذا؟! نمشي؟ أكاد أموت تعبًا!

كانت عيناه تجولان في المكان وهو يقول:

- المكان هنا غير آمن، وقد يعودون من جديد، لا بدَّ أن نرحل فورًا.

مدت يدها إليه، وكأنما تطلب منه دون كلام مساعدتها على النهوض.

ولكنه تجاهل يدها، والتفت ومضى في طريقه بصمت، وكاترين خلفه تترنح من التعب، وتكاد تنفجر غيظًا من تصرفاته.

ظهر الخيط الأبيض من الفجر معلنًا مولد نهار جديد، عندما ارتمت "كاترين" على الأرض لتلتقط أنفاسها من فرط السير على أرض جبلية غير ممهدة، وعندما رفعت عينيها إليه، غمرتها الدهشة عندما رأته يوليها ظهره ويعيش مع صلاته.

زفرت بقوة، وهزت رأسها في عجب، وهي تتساءل في نفسها:

- أي قوة يمتلك هذا الرجل؟ وأي سكينة تهبط عليه في تلك اللحظات الحرجة!!، وتجعله يصلي بكل هذا الخشوع، برغم الخطر المحدق بهما!

أنهى صلاته، وعاد يسير في طريقه، ونهضت باستسلام تتبعه بصمت، بعد أن أدركت أنّ أي اعتراض تبديه ليس له جدوى، أمام شخصيته القوية الآمرة.

سارا لمدة طويلة، حتى صعدا إلى جبل قصير، ثم بدءا في النزول من الجانب الآخر والشمس تغزل خيوط أشعتها، ألقت بعينيها أسفل الجبل، وتنهدت وهي تقول بسعادة كبيرة:

- أخيرًا قرية هناك، سنأكل ونرتاح.

قال بهدوء وهو ينظر نحو القرية البعيدة:

- لا تتعلقي بالأمل كثيرًا، حتى لا تُصابي بصدمة عندما تتكشف الحقيقة.

التفتت إليه بحدة وسألته:

- ماذا تقصد؟! لم أفهم كلامك.

قال باقتضاب:

- ستفهمين عندما نصل إلى هناك.

وعندما وصلا إلى هناك أدركت الصدمة التي كان يتحدث عنها، بل عايشتها بكل مشاعرها.

كان الدَّمار الذي لحق بالقرية مروعًا بحق، سارت داخل القرية تتأمل البيوت المهدمة والمحال والسيارات المحطمة، وهي في ذهول حتى أتاها صوته الغاضب:

- هكذا هم في حروبنا معهم، عندما يهاجمون الشيشان في كل مرة، يستخدمون في تقدمهم سياسة الأرض المحروقة، فلا يتركون أخضرَ ولا يابس، حتى المناطق التي أخليناها، لم يتقدموا فيها حتى أحرقوها تمامًا بكل ما أوتوا من قوة، تحسبًا وخوفًا من عودتنا.

قالت "كاترين" بألم وهي تنظر حولها وتتأمل الدمار بذهول:

- مستحيل!! إنهم وحوش، قتلة، يجب أن يُحاكموا أمام العالم كمجرمي حرب، تلك القرية الآمنة، ما ذنب سكانها من المدنيين الأبرياء؟

زفر "عمر" زفرة حارقة من قلبه المشتعل:

- يرون الشعب الشيشاني كله شعباً إرهابياً حتى الطفل الصغير، ولذا فهم لا يفرقون بين المجاهدين وبين المدنيين من الشيوخ والنساء والأطفال، فقذائف الطائرات والصواريخ بعيدة المدى تستهدف المدنيين حتى تجليهم عن أرضهم، وقد حصل من جراء هذا القصف مذابح مروعة للمدنيين، راح ضحيتها الكثير من الشيوخ والنساء والأطفال.

ماذا ستفعلين لو رأيت بعينيك المذابح المروعة، التي تبكي لها العيون وتتفطر لها القلوب؟

دفن ألمه بين أضلعه، وقال يتعجلها:

- هيا لا وقت لدينا، علينا أن نغادر بسرعة.

لم تستمع إليه، وأخرجت الكاميرا من حقيبتها، وبدأت تلتقط صورًا كثيرة لمناظر الدمار الرهيب الذي حل بالقرية.

تركها الذئب تلتقط ما تريده من صور، ولم يعترض، بل أخذ يدور في المكان ليتأكد أنه آمن.

توقفت "كاترين" طويلاً أمام أحد البيوت المحترقة، وأخذت تتأمل أحد جدرانه المهدمة، والتي كتب عليه بخط كبير:

(مرحبًا بكم في الجحيم)[1]

---

(1) كُتبت هذه العبارات بالفعل على جدران المنازل في جروزني أثناء الحرب.

تساءلت "كاترين" بدهشة:

- كيف تحمل المدنيون كل تلك الأهوال والمآسي؟!

رد عليها دون أن يلتفت، وظهر الحزن عميقًا في صوته:

- من أجل هذا غادر المجاهدون إلى الجبال.

قالت والدموع في عينيها، وصوتها يكاد يختنق من البكاء:

- ولكن لم يفعلون ذلك؟

لم يرد عليها، كان عقله في مكان آخر، وروحه تحلق بعيدًا هناك.

("عمر"، أري في عينيك خوفًا وقلقًا)

ابتسم "عمر" وقال:

- يا ربنا! كيف أستطيع أن أخفي عنك شيئًا؟ لديك كاشف للأسرار أعجز عن خداعه!

"زهرة" بحنان:

- هيا، اعترف ماذا يُقلقك الآن؟

اختفت ابتسامته، وقال بأسف:

- أصدرت القيادة أوامرها لنا بالانسحاب من العاصمة وتركها للروس، لم يعد أهل البلاد المدنيين بقادرين على تحمُّل جحيم القصف المستعر،

لقد صبروا معنا طوال أشهر، فقدوا فيها كل شيء، وبقوا صامدين تحت الحصار في أقسى ظروف يمكن أن يعيشها إنسان، والآن، علينا الخروج حتى لا تفنى جروزني...

تنهد بأسى وهو يكمل:

– أشد ما يؤلمني هو أنني سأضطر لتركك هنا، أنت وأمك وأخويك وطفلتنا والرحيل مع المجاهدين.

ابتسمت محاولة التخفيف عنه، وقالت مبدلة مجرى الحديث:

– ما زلت مصرًا أنها طفلة وليس طفلًا؟!!

عادت ابتسامته تزين وجهه وهو يقول:

– طفلة أو طفل، رزق من الله، المهم أن يشبهك "زهرة" بإصرار:

– ولكني أريد صبيًا يشبهك أنت.

انتفض "عمر" بطريقة طفولية وهتف:

– يفتح الله... هارجع في البيعة!

مش كفاية واحد مني في العيلة؟

ضحكت "زهرة" بشدة حتى دمعت عيناها وقالت:

– لم تنس أبدًا اللهجة المصرية! مازال يجري في دمائك حبك لمصر!

ابتسم بحنين كبير، وظهر في وجهه عاطفة جياشة، وهو يقول:

– وكيف أنسى أجمل سنوات "عمري"؟! ملاعب الطفولة والصبا ومراتع الفتوة؟

أمي "فتحية" وأبويا "بسيوني"، قهوة عم "جاد". القلعة. مسجد "السلطان حسن"، "بوابة المتولي"... الكرة الشراب، والطيارات الورق وهي ماليه السما زي النجوم، وشمس الأصيل ونسيم العصاري ونهر النيل وريحة الورد البلدي، والفل والياسمين، وبحر اسكندرية وهواه!!

أغمض عينيه واستنشق الهواء بقوة، وكأنما يستشعر طعمه في خياله، وقال:

– كيف أنسى الدفء بلا حدود؟

ابتسمت "زهرة" وقالت:

– لقد أحببتُ مصر دون أن أراها! تصفها كأجمل ما تكون، حقًا لقد أثرت شوقي لرؤياها!

التفت إليها وقال بسعادة:

– حقًا؟!

هزت رأسها بالموافقة فأكمل بحماس:

– أعدك عندما أعود، ويخرج الروس من الشيشان، سأعمل كل جهدي لنزور مصر معًا... اتفقنا؟

هزت رأسها موافقة بسعادة.

فجأة فقد ابتسامته وشرد بعيدًا، وقال:

– هذا إن عدتُ.

هتفت بحماس:

– ستعود إن شاء الله، أعلم أنك ستعود. يجب أن يعود الذئب مهما طال الزمن وقست الظروف.

(عدت لشرودك من جديد!)

هتفت "كاترين":

– ألا تسمعني أخاطبك؟

أدار "عمر" رأسه ببطء تجاهها، فأصابتها الدهشة من منظر عينيه الحزينتين الخاويتين، وكأنما ينظر إلى الماضي لا إليها.

قالت بتعاطف كبير:

- كان الأمر بشعًا... أليس كذلك؟

أكملت بأسف دون انتظار رده:

- وجروزني هي دائمًا الأكثر معاناة!

عجز "عمر" عن إخفاء الألم الممزوج بالغضب في صوته، وهو يقول:

- شهور تحت القصف الرهيب والحصار الحديدي.

ثلاثة آلاف بالأسلحة الخفيفة، أكبرها الهاون ١٢٠مم، وقليل من القذائف التي نغنمها من الروس، مقابل مائة ألف جندي أو يزيد تدعمهم المدفعية والطائرات.

جرّب الروس فيها كل الأسلحة المحرمة دوليًا، القديمة والجديدة، الكيماوية منها والعنقودية والفراغية.

دمروا المدينة تماماً تقريبًا وحتى الطرقات، لدرجة أنهم عندما دخلوها لم تستطع الدبابات أن تمر فيها.

تنهد بمرارة كبيرة وقال:

- هل شاهدت يومًا قنابل فراغية ٩ طن؟

إنها تقسم المبنى المكون من عشرة طوابق، إلى قسمين حتى الملجأ السفلي، قتل الكثير والكثير من المجاهدين والسكان العزل تحت الهدم، ورغم هذا كان تقدم الروس في المدينة بطيئاً جداً.

كل يوم وبعد معارك عنيفة في مائة متر فقط، يسوون البيوت بالأرض فيتراجع المجاهدون إلى المربع التالي، بعد خسائر فادحة في الروس.

فكانوا ينتقمون بالقصف العنيف، حتى المستشفيات التي تحت الأرض قصفها الروس بشدة.

وقلّت المؤن والذخيرة، ولم يبقَ في المدينة مدينة، حتى إن الروس عندما دخلوها بعد خروجنا، لم يجدوا فيها مبنى سليماً، فقرروا أن يجعلوا مدينة "جود رميس "العاصمة المؤقتة.

"كاترين" بتفهم:

– ولهذا انسحبتم متسللين خارج العاصمة؟

التفت إليها بحدة، وقال بغضب:

– لم نتسلل أبدًا، أهذا هو ما يسوقه إعلامهم وترمي إليه صحافتهم؟

لقد اجتمع القادة وتشاوروا، وقرروا الخروج من جروزني بكامل أسلحتهم في اتجاه ممر "يرمولوفكا" المعروف، والمحاط بالروس، وتقدم القادة في البداية يفتحون الطريق بأنفسهم، وقد قتل وجرح معظمهم لكثرة الألغام، والقصف المباشر، ولم ينج منهم إلا قليل، واستمرت القافلة إلى أن وصلت إلى الجبال الجنوبية، وبرغم الجراح والمعاناة لم يجرؤ الروس على المواجهة المباشرة.

"كاترين" بتأثر شديد:

– وماذا عن المدنيين؟ ماذا فعل بهم الروس عندما دخلوا المدينة؟!

قذفته "كاترين" في بحر لجي من الذكريات!

عندما ترك "عمر" جروزني، لم يكن يتوقع أبدًا أنه سيعود إليها بهذه السرعة وبهذه الطريقة، وقبل أن يخرج الروس منها.

علم المجاهدون أنَّ القوات الروسية التي احتلت جروزني، قد اشترت بعض الخونة والعملاء، وأغرتهم بالمال، للإبلاغ عن أي معلومات عن المجاهدين وأهليهم وأماكن بيوتهم.

عندها جن جنونه، وقرر العودة إلى جروزني ليلاً ليطمئن على "زهرة" مهما كان الثمن ومهما كانت المجازفة، وبرغم اعتراض القادة جميعًا، إلا أن أحدًا منهم لم يستطع الوقوف أمام إصراره الرهيب على العودة، ليطمئن على زوجته، فسمحوا له مضطرين بالعودة إلى جروزني، ومعه اثنان من المجاهدين لمساعدته على التسلل ليلاً إلى هناك.

وبالفعل استطاع "عمر" التسلل إلى جروزني والوصول إلى بيته الذي تهدم نصفه تقريبًا.

دخل البيت دون أن يشعر به أحد، فوجده مظلمًا تمامًا، فأخذ يدور في أنحاء البيت بهدوء حتى وصل إلى حجرة المعيشة... وهناك وجد "زهرة" تجلس في مكانها المفضل بجوار المكتبة الكبيرة، وهي تقرأ القرآن في ضوء شمعة بجوارها، وبقية الحجرة غارقة في الظلام.

أجفلت "زهرة" متعوذة، عندما فوجئت بشبح أسود يقف في الظلام، لكنها عرفته على الفور، وقالت بدهشة وهي تحتضنه بشوق:

- "عمر"؟!!

كيف أتيت إلى هنا؟، يجب أن ترحل عن جروزني، فأنت في خطر محقق.

خلع "عمر" لثامه الأسود عن وجهه، وقال بلهفة وهو يتمسك بها بقوة، وكأنما يخشى أن تبتعد عنه:

- لا يهمني أي شيء، لقد أتيت من أجلك.

"زهرة"، يجب أن ترحلي عن هنا، فهناك خونة في جروزني يُرشدون الروس إلى بيوت المجاهدين في مقابل المال، يجب أن ترحلي قبل أن يخبروا الروس عنك.

"زهرة" :

- لا يمكنني الرحيل، أنت تعلم أنني طبيبة والمستشفى بحاجة إليّ، لدينا نقص فظيع في الأطباء، وأعداد الجرحى كبيرة،لا يمكنني الرحيل.

قال بإصرار:

- اسمعيني. لو أبلغوا عنك فستفقد المستشفى طبيبة أخرى إلى الأبد، لا يمكنك أن...

أبعدت رأسها عن كتفه لتنظر إلى عينيه، وتتأمل ملامحه على ضوء الشمعة، وهي تهتف بأسى:

- أنت لم تر ما وصل إليه الحال في المستشفى؟

إننا نُجري العمليات الجراحية على ضوء المصابيح اليدوية ولمبات الغاز، بعد أن قطعوا الكهرباء، والجرحى المساكين يقاسون البرد الشديد، بالإضافة لآلامهم وجراحاتهم، بعد انقطاع الغاز بسبب الحرب.

الطعام غير موجود حتى للأطباء والعاملين في المستشفى، وإن وجد فهو لا يكفي لتغذية المريض، فالجرحى يتكفلون شراءه من خارج المستشفى بالإضافة لشراء الدواء.

كيف أشرح لك؟!

النقص فظيع في الدواء والأدوات الجراحية، من غياب القفازات الجراحية التي يستخدمها الجراح في عمله، وعدم وجود الشاش الذي لا يمكن إجراء أي عملية أو حتى ضماد بسيط بدونه، المريض الذي يريد أن يغير ضماد جرحه، يأتي حاملاً معه الضماد والمطهر والدواء.

صار الوضع في المستشفيات أشبه بصراع بين طرفين، أولهما صواريخ الروس وقنابلهم، وثانيهما الطعام والدواء والكادر الطبي المحدود، وإذا استمر هذا العدوان الوحشي، وبقيت حالة العجز في المستشفيات، فإن الشعب بأكمله معرض للإبادة الجماعية لا محالة.

تأمل "عمر" وجهها بحب وفخر كبير، وهمس قائلًا:

- لهذا بقيتِ في المستشفى أكثر من ستين يومًا ليل نهار مع الجرحى، تحت القصف بالقنابل الفراغية والعميقة التي تزلزل الأسس وتقض المباني!

وحتى عندما نقل مكان المستشفى ثلاث مرات لم تتخلفي عنه أبدًا، أقدر تمامًا كل ما تفعلينه يا حبيبتي.

ولكن الأمر مختلف تمامًا هذه المرة، فحيـ...

لم يتم "عمر" الكلمة، فجأة صمت تمامًا وعقد حاجبيه بشدة، وأصغى سمعه باهتمام، ثم التفت إليها بحدة، وأمسك ذراعيها وقال بجزع:

- إنهم قادمون. أسمع صوت آلياتهم.

أنصتت باهتمام، وظهر الخوف في ملامحها، وتشبثت به وهي تقول:

- إنهم يقتربون، "عمر"، يجب أن ترحل فورًا قبل أن يجدوك.

ألقى "عمر" نظرة عبر فرجة في ستائر النافذة، وفي الظلام، شاهد العربات المدرعة، وهي تسير آمنة في الطريق ببطء مستفز، وكأنهم في نزهة، التفت إليها وقال بقلق:

- لقد توقفوا هنا!

تشبث بسلاحه، وأسند ظهره للجدار بجوار الباب، وبيده الأخرى أمسك بيد "زهرة" وتشابكت أصابعهما، وبدأ الرعب يدب في قلبه، وبرغم

برودة الجو وانقطاع الكهرباء وتعطل أجهزة التدفئة، أخذت حبات العرق تتراص على جبينه، وبدأت صورة قديمة مرعبة تقتحم عقله، صورة لم يرها بعينيه لكنه رآها بخياله مرات عديدة.

صورة أمه وأبيه وإخوته الذين ذُبحوا في بيتهم بيد الاحتلال، ولم يستطع أن يمنع الخوف عن قلبه، عندما سمع وقع أقدام الجنود الروس، يقترب من البوابة الخارجية، فضغط يد "زهرة" بقوة، ونظر في عينيها، وكأنه يستمد منهما الأمان، وتسارعت دقات قلبه، وصوت أقدام الجنود يقترب ويقترب.

***

(7)

(احذري...)

صرخ الذئب وهو يدفع "كاترين" بقسوة فسقطت على الأرض بعنف، وهي تصرخ من الألم.

نهضت ببطء متأوهة، ثم صرخت قائلة:

- لماذا فعلت ذلك؟

أشار إلى الأرض وهو يقول:

- (فقَّاس)!!

نظرت حيث يشير وقالت بدهشة:

- ماذا؟! لم أفهم؟

قال مفسرًا:

- (فقاس) ألغام بشرية مضادة للأفراد، وهي كثيرة الشظايا وصغيرة، بحيث لا تُلاحظ بسهولة، يلغمون بها طريق القرى، لتنفجر في طريق المهاجرين الذين سيمرون على هذا الطريق.

تأملت القذيفة بدهشة وخوف، ثم نظرت إليه قائلة بامتنان:

- كدت أموت! لقد أنقذت حياتي.

قال:

- هذا في أسوأ الظروف، ولكن في الغالب كنت ستفقدين ساقًا أو يدًا، إنهم يتقنون صنعها بحيث لا تقتل مباشرة، فهم يريدون جعل موتنا بطيئًا.

نظرت إليه بذهول، لكنه تركها تكمل عملها، وأخذ يدور في أرجاء القرية.

انشغلت "كاترين" بالتقاط الصور، وأخذها الحماس الشديد وحبها لعملها، لكنها استفاقت فجأة لتجد نفسها وحيدة في المكان، أخذت تتلفت حولها باحثة عن الذئب، لكنها لم تجده!

بدأ الخوف يزحف إلى قلبها، لكنها تماسكت، وأخذت تبحث عنه في المناطق القريبة وهي تنادي:

- أيها القائد، أين أنت؟

- (هل انتهيت؟)

أجفلت بشدة، وهي تلتفت إلى مصدر الصوت، رأته وهو يخرج من بيت قريب ويقترب منها، أخذت تلهث وعلامات الخوف تتبدل في ملامحها إلى الغضب، وهي تهتف:

- إلى أين ذهبت؟

قال بطريقته المباشرة المختصرة، والتي بدأت في التأقلم معها:

- كنت أبحث عن سيارة.

تأملته مليًا بدهشة، كان قد بدل ملابسه العسكرية بأخرى مدنية

لكن ما أثار دهشتها حقًا هو ذلك الكم من الوسامة التي يحملها وجهه، بعد أن نزع لثامه الأسود.

هتفت بانبهار:

- واو... أكل الشيشانيين بتلك الوسامة؟!

تجاهل نظراتها تمامًا ولم يرد على عبارتها، وتركها وأخذ يبحث في أرجاء المكان عن سيارة.

تبعته بصمت وقد بدأ الهدوء يعود إليها، وغمرتها الطمأنينة، عوضًا عن الحنق الشديد، من طريقته الجافة في التعامل معها.

استطاع أخيرًا العثور على سيارة سليمة، في أحد الجراجات لمنزل تهدم أغلبه.

سألته "كاترين" بدهشة:

- سيارة سليمة وسط كل هذا الدمار؟!!

علق قائلا بسخرية:

- يبدو أنهم كانوا متعجلين فلم ينجزوا عملهم بدقة.

نجح الذئب في جعل السيارة تدور بمهارة بدون المفاتيح (التي أضناهما البحث عنها) عن طريق سلكي التشغيل في مقدمة السيارة.

قالت "كاترين" وهي تبتسم:

- أنت ماهر في ذلك.

قال بسخرية:

- فعلتها مرات عديدة فيما مضى.

انطلق بالسيارة مغادرًا القرية، التي أصبحت خرابًا.

وفي الطريق أفصحت له عن السؤال الذي يدور في رأسها:

- لم بدلت ملابسك العسكرية؟

رد مباشرة:

- علينا أن نكون أكثر حرصًا في تحركاتنا، فلا يمكن أن نتوقع ما الذي يمكن أن نقابله في طريقنا.

قالت وابتسامة ماكرة تنبت على شفتيها:

- أتخشى الروس؟!

قال:

- أخشى ألا يصل حملي الثقيل إلى منطقة آمنة.

أشاحت بوجهها بعيدًا باستياء، من تلك الصفة التي أطلقها عليها.

زفرت بضيق، ثم قالت:

- أعلم الآن لم يسميكم الروس [الشعب الذي لا يرهب الموت].

مرت فترة طويلة من الصمت، والسيارة تقطع الأرض في طريقها، حتى قالت "كاترين" أخيرًا:

- أتعلم لم كنت أبحث عنكم؟

لم يرد، فقالت بخيبة أمل:

- ألا تريد أن تعرف؟! سأخبرك على الرغم من ذلك...

كنت أريد أن أعرف لماذا تقومون بتفجيرات وعمليات إرهابية داخل المدن الروسية؟

أدارت وجهها للطريق، وتنهدت بضيق وهي تعلم أنها لن تتلقى إجابة، وقالت بيأس:

- عدت لصمتك من جديد...

فوجئت بصوته يصل إلى أذنها، وهو يقول:

- وهل تصدقينني إن أجبتك؟!

التفتت إليه بدهشة، وقررت ألا تضيع الفرصة وتجعله يتكلم، فقالت له:

- لو لم أكن مستعدة لأن أصدقك ما كنت سألتك.

قال:

- التفجيرات التي حدثت في المدن الروسية وخاصه للمدنيين، ليس لنا يد فيها، فنحن لا نضرب إلا قواعد عسكرية!

صمتت "كاترين" ولم ترد، فقال:

- كنت أعلم أنك لن تصدقيني.

قالت بصدق:

- على العكس، أنا أصدقك أكثر مما تتوقع...

لقد حصلت على معلومات مؤكدة، تنفي أن لكم يدًا في تلك التفجيرات، ومن مصدر لا يخضع لأي شك...

من ضابط روسي في فرقة (قرأوا)

عقد حاجبيه بشدة، ونظر إليها مندهشًا، لكنها أكملت بجدية:

- لقد أخبرني بلسانه أنَّ هذه التفجيرات تم تنفيذها، من قبل مجموعة خاصة من (F.S.P) (المخابرات الروسية) بالاشتراك مع مجموعة من فرقة (قرأوا) بإيعاز من رئيس الوزراء، لتغيير الرأي العام الروسي ليكون ضد شعب الشيشان، وحتي يكون لديهم المبرر الكافي لخوض تلك الحرب واحتلال الشيشان، وكذلك ليرتفع اسم رئيس الوزراء عاليًا في صفوف شعبه.

هل هذا هو ما كنت ستخبرني به؟

نظر إليها بدهشة، ثم سألها فجأة:

- كيف استطعتِ أن تنتزعي منه كل تلك المعلومات، التي تعتبر أسرارًا عسكرية شديدة السرية؟

قالت بغرور، وهي سعيدة أنها استطاعت جذبه للحديث:

- كل صحفي وله طرقه الخاصة!

تغير وجهه ومط شفتيه، ثم أدار وجهه للطريق، وعاد لصمته.

لم تعجبها النظرة التي رماها بها، فقالت بانفعال وكأنما تحاول الدفاع عن نفسها:

- لقد اعترف بكل ذلك وهو تحت تأثير الفودكا، وبعد أن أخذت منه كل المعلومات التي أريدها، تركته مسجي على الأرض، بعد تناوله جرعة كبيرة من الدواء المنوم، الذي أحمله دائمًا في حقيبتي، وغادرت المعسكر.

ثم سألته:

- أخبرني، كيف تحصلون على الأسلحة، رغم أنكم تعتبرون دولة فقيرة؟

ردَّ مباشرة:

- أغلبها أسلحة روسية، غنمناها من معاركنا التي ننتصر فيها.

سألته بدهشة:

- وهل تنتصرون؟

أردفت بسرعه:

- عفوًا لكن مصادر الأخبار تقول...

قاطعها قائلاً:

- من مصلحة الروس أن يهونوا من شأن انتصاراتنا، ويخفوا خسائرهم حتى لا يثور الشعب ضدهم.

أردف بلهجة تمتلئ بالسخرية:

– يظن الرئيس الروسي أنه اللاعب الوحيد، الذي بإمكانه أن يصرع المجاهدين الشيشان، وأن يكسر أنف الشعب الشيشاني، فبكل قسوة وعنفوان لاعب الجودو عمل على قمع الشعب الشيشاني، ونفَّذ بحقه حملته البشعة لـ"التطهير العرقي"، حتى قتل من الشعب الصغير الذي يجاوز المليون بقليل، أكثر من مائة وخمسين ألفًا وشرد وهجر ما بين مائتين وخمسمائة ألف مسلم شيشاني، بحسب المصادر القوقازية الرسمية وغير الرسمية[1]

أكثر من نصف الشعب لا يجدون مأوى لهم، ويعانون من قله الطعام وأحوال الطقس الشديدة، وندرة الرعاية الصحية.

ومع كل هذا الدمار، ظنّ أنّ الأمور تسير دومًا لصالحه، لكن الرياح لم تأت بما يشتهيه البحار الروسي، فالذي حدث خلال الأشهر القليلة الماضية، أن كثرة رماح الروس لم تستطع أن تحني جباهنا، ولا شك أن بعض أخبار العمليات الفدائية الضخمة، التي قمنا بها خلال الأشهر القليلة الماضية، قد وصلتكم، على الرغم من أن الحكومة الروسية تعمد دائمًا، إلى إخفاء أرقام خسائرها الحقيقية.

قالت باسمة:

– لا أعتقد أنّ الروس بإمكانهم إخفاء كل تلك الأعداد من القتلى من جنودهم، خاصة عندما يصل الأمر إلى أرقام ذات صفرين وثلاثة، حسب إحصائيات جمعية أمهات الجنود الروس، والمصادر الرسمية الروسية.

ساخرًا:

(1) أي نحو نصف عدد سكان الجمهورية على حد قول بعض المصادر للمنظمات الإنسانية)

– ولكنهم لايزالون يعتبرون أن هذا ثمن بخس، لتطويع الجمهورية المسلمة الأبيّة الغنية بالنفط.

عقدت حاجبيها قائلة:

– قد يطول الأمر لسنوات، حتى تستطيعوا إقناعهم بعكس ذلك.

قال بثقة:

– نحن أيضًا لسنا متعجلين، إنّ طريق الاستقلال لايزال طويلا

وهذا ما كان يدركه تمامًا الرئيس الشيشاني الراحل (جوهر دوداييف) عندما قال:

– "إن المعركة الحالية مع روسيا، ستستمر خمسين سنة على الأقل لتحقيق الاستقلال الكامل"

ورغم كل مكابرتها فلقد بدأت روسيا طريق الاندحار في الشيشان وهي في النهاية ستذعن، فسخونة معارك الصيف القادم ستذيب جليد الثلج الروسي.

كان صوته العميق يحمل الكثير، وهو يقول بثقةٍ لا حدود لها:

– على العالم أن يدرك – وروسيا من قبلهم – أنّ القضية الشيشانية لا يمكن للروس "حلها" عسكريًا مهما فعلوا.

***

تنفس "عمر" الصعداء عندما عبر الجنود أمام باب البيت ولم يتوقفوا، بل استمروا في سيرهم، وعندما ابتعدت أصواتهم،

خارت قواه وانزلق جسده إلى الأرض، وأسند رأسه إلى الجدار وأغلق عينيه وهو يلهث بقوة، وجلست "زهرة" إلى جواره، وهي لاتزال

مُمسكة بيده، وبيدها الأخرى مسحت حبات العرق التي تناثرت فوق جبينه، وهي تقول بحنان:

- "عمر"، هل أنت بخير الآن؟

أخذ نفسًا عميقًا، وهز رأسه موافقًا، وقال بعد تردد:

- نعم، ولكن عليكِ أن تغادري جروزني الليلة!

هتفت باعتراض:

- ولكن...

قاطعها بانفعال:

- ألا تدركين الخطر المحدق بك؟!

إنهم يبحثون عني كالكلاب المسعورة... وأنا... أنا...

صمت قليلًا، وأدار وجهه بعيدًا عنها حتى لا ترى الضعف في عينيه.

قالت بصوت بالغ الحنان:

- "عمر"، ما بك؟

قال بعد تردد:

- أخشى... أن يحترق قلبي، وأفقد "زهرة" فؤادي!

قد أتحمل كل عذابات الحياة، لكني لن أستطيع أن أتحمل أبدًا أن تذبل "زهرة" روحي...

نظر في عينيها من جديد محاولًا أن يستمد منهما القوة.

فقالت بعد تفكير:

- "عمر"، إن احترقت "زهرة"، فجبال بلادنا تنبت أجمل وأندر الزهور.

قال بحنين:

- ولكن قلبي لا يسع سوى "زهرة" واحدة.

ابتسمت بحب:

- وستظل تحيا في قلبك، ترتوي مِن حُبك لهذه الأرض.

أكملت في شجاعة:

- لا تقلق علي، سيصبح كل شيء بخير إن شاء الله.

قال برجاء:

- "زهرة"، يجب أن تغادري جروزني من أجلي، لن أتحمل أن أكون هناك، وقلبي يتمزق من القلق عليك في كل دقيقة.

عديني أنك سترحلين، مع قوافل المهاجرين أنت وأمك وإخوتك.

ولا تنسي أنك على وشك وضع طفلنا الأول.

تنهدت باستسلام ثم قالت وهي تبتسم بحب:

- ماذا أقول؟! لا أستطيع أن أخالف أمر زوجي، سأغادر غدًا مع قوافل المهاجرين.

ابتسم ابتسامة كبيرة وهو ينظر إلى بطنها المكور الذي يحمل طفلهما الأول ووضع كفه عليه وقال:

- وأنت أيها الولد الشقي، كن رجل البيت، ولترعَ أمك في غيابي... هل تفهم؟ وكن ولدًا مطيعًا!

خفتت ابتسامته وتنهد، وهو يقول:

- لن يطول الأمر، سأعمل على أن نعود إلى بيتنا سريعًا.

اشتعلت عيناه ببريق غاضب:

- لن ندعهم يهنئون فيها، سنخرجهم منها صاغرين!

***

انتفض الذئب مستفيقًا من ذكرياته، عندما لمع ضوء سريع قوي على وجهه ونظر إلى "كاترين" فوجدها تبتسم وهي تمسك بالكاميرا، فقال بغضب:

– صورتي ليست للنشر.

أنزلت الكاميرا ببطء، وقالت:

– أعلم، اطمئن، فقط أحببت أن أحتفظ بصورة، لذئب أنقذ حياتي!

نظر إلى الطريق بصمت، وشاركته صمته، حتى بدأ يهدئ من سرعة السيارة تدريجيًا.

التفتت إليه، فوجدته قد عقد حاجبيه بقلق، وهو ينظر بعيدًا.

قالت حينما انتقل إليها قلقه:

– ماذا حدث؟

قال:

– هذا ما كان ينقصنا، حاجز تفتيش.

لم يجد الذئب مفرًّا، فتقدم بالسيارة نحو حاجز التفتيش المقام على الطريق

أخذت كاترين تتأمل المشهد والقلق يزداد بداخلها.

طابور طويل من السيارات، يتوقف أمام حاجز التفتيش، الذي يقف عنده مجموعة من قوات الأمن الروسية، وتقوم بتفتيش السيارات، وتفحص أوراق وهويات العابرين على الطريق.

انضم الذئب قسرًا إلى طابور السيارات، ولم يلبث أن اقترب منه أحد الجنود، وطلب منه مغادرة السيارة هو ورفيقته، كما فعل مع جميع السيارات.

غادرا السيارة باستسلام، والقلق ينهشهما، واقتربت "كاترين" منه وسارت بجواره وكأنما تحتمي به، وشعر هو بخوفها، فقال بهمس وهو يسير بخطوات متمهلة:

- اطمئني، سأتحدث إليهم، أعلم تمامًا ما يريدونه.

فكرت "كاترين" قليلاً ثم قالت عندما أعطتها شجاعته الكثير من الطمأنينة: - دعني أحاول معهم، لا تنسَ أنني صحفية، ولي طرقي الخاصة.

قال بسخرية ضايقتها:

- منوم أيضًا؟

رفعت أحد حاجبيها بضيق وقالت:

- لديّ أشياء أخرى أكثر فاعلية!

قالت وهي تتقدم:

- انتظر هنا فقد يرتابون بأمرك، سأذهب أنا إليهم.

أجاب بصرامة، وهو يضغط حروف كلماته مؤكدًا:

- خلفك تمامًا.

التفتت إليه بدهشة، وقالت وهي تبتسم:

- حقًا. مسلم غيور!

لم تنتظر "كاترين" تعليقًا منه على عبارتها، ولم يهتم هو بالتعليق، بل تجاهل الأمر تمامًا، فقد كان ذهنه مشغولًا بالجنود، وهم ينظرون إليهما وهما يتقدمان نحوهم.

استجمعت "كاترين" شجاعتها وابتسمت، وهي تتحدث إلى جنود قوات الأمن الروسية.

لكنها فجأة شعرت بالخوف، كانت ردود أفعالهم غير متوقعة أبدًا بالنسبة لها، فقد ظهر في وجوههم القلق والارتياب، وبات واضحًا لها عدم راحتهم لتواجد اثنين من الصحفيين في ذلك المكان.

وعبثًا حاولت "كاترين" إقناعهم بالسماح لهما بالعبور، للحاق ببقية الصحفيين.

وارتعد قلبها رعبًا عندما أمرها أحد الجنود أن تتنحى جانبًا، لحين التأكد من هويتهما، وصدق روايتهما.

واستسلمت "كاترين" وتبعت الذئب الذي انتحى جانبًا، وسار يفكر في موقفهما الدقيق، وهي بجواره، حتى انضما إلى مجموعة العابرين، الذين غادروا سياراتهم بأمر من الأمن.

جلس الذئب يراقب الموقف بهدوء وجلست "كاترين" بجواره، والخوف يكاد أن ينتزع قلبها من مكانه، برغم محاولاتها المستميتة لترسم على وجهها تعبيرًا طبيعيًا.

قالت بصوت هامس:

- ماذا سنفعل الآن؟

قال محاولاً طمأنتها:

- اطمئني، حفنة من المال ستسوي الأمر على نحو جيد.

أذهلها هدوؤه في ذلك الموقف الصعب، وأخذت تنظر إليه نظرات تمتلئ بالإعجاب.

ولكنه لم يلاحظ نظراتها، فقد كانت عيناه مشغولتين بمراقبة المكان، وعقله يحسب حسابات الموقف الراهن.

تنهدت بإحباط، عندما أدركت أنه لا يعيرها أدني اهتمام، برغم حرصه الشديد على حياتها.

أدارت وجهها تتأمل فيمن حولها.

كان المكان يمتلئ بأعداد كبيرة من الشيشانيين، ينتظرون الجنود أن يُفرجوا عنهم وعن أوراقهم، فأخرجت الكاميرا من حقيبتها، وبدأت تلتقط الصور،

لكنها توقفت فجأة عندما هتف أحد الجنود، وهو يقترب منها مُسرعًا:

– ممنوع التصوير، ممنوع التصوير!

أراد أخذ الكاميرا منها، لكن الذئب تدخل ووعده بعدم التصوير، ولم يتركها إلا عندما أقنعه بأن أخذ الكاميرا قد يفسر على أنه اعتداء على حرية الصحافة، وقد يسيء لسمعة روسيا بأكملها.

دست "كاترين" الكاميرا في حقيبتها، وهي تكاد تنفجر غيظًا، وشغلت نفسها بتأمل ما حولها والتحدث إلى الناس، وتكوين صورة متكاملة عن الوضع في تلك البلاد وأحوالها.

جذب عينيها طفل صغير في حوالي السادسة من عمره، يجلس بالقرب منها، وبجواره رجلٌ كهل يبدو عليه الضجر الشديد، اقتربت "كاترين" من الصغير وبدأت تداعبه بحنان وتمسح على شعره، ثم أخذت تحادث الرجل الكهل حديثًا طويلًا، كانت فرصة لا يمكن أن تضيعها كصحفية، للاقتراب من هؤلاء البشر، ومعايشة واقعهم على الطبيعة، ومعرفة المزيد عن مأساتهم عن قرب.

نظر الذئب قليلًا إليها وهي منهمكة في الحديث مع الرجل، وتداعب الطفل بحنو، ثم أدار وجهه وأخذ يتفحص وجوه البشر من حوله، والتي

يحكي كل منها دون كلام قصة مأساة يحياها كل يوم، من قلة الغذاء وتدني الخدمات إلى انعدام الأمن.

فجأة علا في المكان صوت سيدة تتحدث بحدة وغضب، التفت إلى الصوت ليجد سيدة شيشانية تقف أمام جنديين، وهي مشتبكة معهما في مشادة حادة.

تأمل السيدة التي توليه ظهرها، وقفزت إلى رأسه صورة "زهرة"

فقد كانت السيدة تشبهها كثيرًا من الخلف، وهي ترتدي حجابها،

بدأت الدماء تغلي في عروقه، وتتصاعد إلى رأسه، عندما رأى الجنديين يتعمدان إزعاج السيدة، والتحرش بها.

انتفض قائمًا من مكانه وصورة "زهرة" لا تفارق قلبه، وقف أمام الجنديين مباشرة وحال بجسده بينهما وبين السيدة، وأخذ يتحدث إليهما بهدوء بصوت لم يصل إلى "كاترين"، التي وقفت تراقبه من بعيد بخوف وقلق.

ازداد خوفها وهي تري الجنديين يدفعانه في صدره، ولكنه لم يمد إليهما يدًا، بل عاد يتحدث إليهما من جديد.

لكن أحد الجنديين اقترب من السيدة، وبدأ يضايقها ويمد يده إليها!

وحاول الذئب إبعاده عنها بالحسني بلا جدوى!

وتفجر الموقف فجأة نيرانًا ملتهبة، مع صرخات مستنجدة أطلقتها السيدة، عندما انتزع الجندي حجابها من فوق رأسها، بعنف وبصورة مفاجئة، ووجدت كاترين الذئب يهجم على الجندي بغضب هادر، ويكيل له اللكمات العنيفة.

تراجعت عدة خطوات للوراء برعب، وجسدها كله يرتجف، عندما أخرج الجندي الثاني سلاحه، وصوبه نحو الذئب المشغول بعراكه مع الجندي الأول.

وفجأة اندفع الكهل الذي يصاحب الطفل الصغير يركض، ودفع الجندي الممسك بالسلاح في صدره، مما جعل الرصاصة تخطئ طريقها إلى ظهر الذئب وتطيش في الهواء.

وازداد الموقف اشتعالًا، عندما انضم عدة رجال إلى الذئب والكهل، في معركتيهما مع الجنديين.

واندفع بقية الجنود يطلقون أسلحتهم بغزارة.

تشبثت "كاترين" بالطفل الصغير الواقف بجوارها، واحتضنته، وأصابها ذعر شديد.

لم تكن تدري لحظتها هل تحاول أن تحمي الطفل، أم تحتمي به؟

وجد الذئب نفسه في قلب النيران، هو ورفاقه المدنيين الذين انضموا إليه برغبتهم.

وتساقط قتلي من المدنيين الشيشانيين، وتفجرت الساحة بالدماء.

مما أجبر الذئب أن يرفع كفيه فوق رأسه، ويصرخ بأعلى صوته:

- لا تُطلقوا النار، نحن نستسلم.

فقد أدرك بخبرته في التعامل مع الروس، أنهم لن يتوقفوا إلا عندما يصير المكان حمامًا من الدماء، كان يخشى على النساء والأطفال المتواجدين، وبرغم أن الرجال الذين انضموا إليه دون ترتيب لم يكونوا يعرفونه، إلا أنهم توقفوا على الفور عن القتال، وكأنهم تلقوا ذلك الأمر من قائد لهم.

وتوقفت أيضًا النيران الروسية بعد أن خلفت عددًا من القتلى، واقتادوا المجموعة المتمردة تحت تهديد السلاح، إلى بيت قريب كانوا قد أخلوا سكانه قسرًا، ليتخذوه مقرًا لهم.

وسار الذئب بين طابور الأسرى مستسلمًا ويده فوق رأسه، وعيناه تدوران في المكان بحثًا عن "كاترين"، وبمجرد أن رآها أشار إليها برأسه، إشارة تعني أن تذهب بالسيارة، وتتركه لمصيره.

ظلت "كاترين" ترتجف وهي تحتضن الصغير، وأخذ الجنود في صرف الناس حتى لا يحدث تمرد آخر.

وانصرفت الجموع، وقلوبهم تتميز من الحقد والغضب، وجوارحهم المكبلة تتمنى الانتقام.

بدأت "كاترين" بالتحرك، وهي تبحث عن الكهل الذي يصحب الصغير، ولكنها كادت تخر على وجهها رعبًا، عندما وجدته بين الجثث المفترشة الطريق، وفي أثناء تراجعها للخلف، كادت تتعثر بجُثة أخرى، جثة المرأة التي بسببها، قامت تلك المذبحة!

احتضنت الطفل بإشفاق كبير، وأدارت وجهه إلى كتفها حتى لا يرى ذلك المشهد الرهيب، ودموعها تتفجر بغزارة.

واستسلم الصغير لها وأسند رأسه إلى كتفها، لكن لدهشتها لم يبكِ، لم يبكِ أبدًا.

بدأت الشرطة الشيشانية تتوافد إلى المكان، و"كاترين" تتراجع وهي تحمل الصغير المتعلق بعنقها.

انتفضت فزعًا عندما اصطدمت بأحد الأشخاص، والتفتت بحدة لتجده أحد رجال الشرطة الشيشانية.

حاول أن يهدئ من روعها، وسألها عما حدث، فقصَّت عليه كل شيء وأخبرته أن صديقها معتقل هناك في ذلك المنزل، طمأنها الشرطي ووعدها بأنه سيحاول إخراجه من هناك، ثم طلب منها طلبًا غريبًا

طلب منها أن تقود السيارة، وتنتظره على الطريق بعد مائتي متر.

لا تدري "كاترين" كيف عادت إلى السيارة ومعها الصغير، ولا كيف قادتها وجسدها يرتجف من الرعب، والأعجب أنها لم تدر كيف وثقت بذلك الشرطي وأطاعته، وانتظرت في السيارة في المكان الذي حدده لها،

ربما لأنها لم تكن تمتلك أي حل بديل، أو ربما لأن الرعب قد شلّ تفكيرها، جلست في السيارة تنظر للصغير الذي استكان تمامًا في المقعد المجاور لها، وأدار وجهه إلى النافذة ينظر إلى السماء.

تنهدت "كاترين" بإشفاق كبير لهذا الصغير الوحيد، وتساءلت في نفسها:

- لماذا لا تبكي؟

هل تكرر ذلك المشهد كثيرًا أمام عينيك، حتى لم يعد يثير فيك مشاعر الفزع؟

هل جفت دموعك من كثرة المعاناة والألم؟

أسندت رأسها إلى المقعد باستسلام، وتنهدت وهي تسترجع صورة الذئب والجنود يقتادونه مع الأسرى، وغزا قلبَها الألمُ وهي تتذكر كيف كان حريصًا عليها، وكيف أنقذ حياتها، وهي الآن عاجزة عن تقديم أي معونة له.

تمتمت بأسى:

- ترى، ماذا يفعلون بك الآن؟

أغمضت عينيها، وأردفت بحزن وهي تتذكر ملامح وجهه:

- هل سنلتقي ثانية؟

طال الوقت عليها وهي جالسة في السيارة تنتظر...

تنتظر ماذا؟!

لا تدري...

***

انتفضت بفزع شديد عندما فتح باب السيارة المجاور لها، ثم انقلب الفزع إلى دهشة عارمة، وهي تنظر للذئب الذي ظهر أمامها.

انتقلت إلى المقعد المجاور مفسحة له كرسي السائق، وتلقت الصغير على ساقيها وهي تتأمل الذئب، وهو ينطلق بالسيارة بصمت، وهي لا تكاد تصدق ما يحدث.

كيف نجا من الأسر؟

شغل هذا السؤال تفكيرها، وهي تتأمل ملامحه الجامدة، ووجهه الذي لم يلتفت إليها أبدًا منذ انطلق بالسيارة.

هتفت أخيرًا بعد أن تمالكت أعصابها:

- كيف هربت؟

قال باقتضاب زاد من حيرتها وفضولها:

- تلقيت بعض المساعدة!

ضاقت عيناها وقالت متسائلة:

- الشرطي الشيشاني، أليس كذلك؟

هز رأسه موافقًا دون أن يتكلم، مما زاد من فضولها وغيظها من صمته.

فهتفت:

- ألن تخبرني بالتفاصيل؟

قال بصرامة:

- التفاصيل ليست ذات أهمية

لقد ساعدني على الهرب وكفى!

المهم الآن أننا مطاردان، وعلينا الوصول لمكان آمن قبل أن يصلوا إلينا.

استشاطت "كاترين" غيظًا من أسلوبه الكتوم، وعدم بوحه بتفاصيل هروبه، والتي تتحرق فضولاً لتعرفها.

ولكنها أدركتْ من سابق تعاملها معه، أنه ليس هناك قوة في الأرض تجبره على الكلام، مالم يكن راغبًا بذلك.

فآثرت الصمت على مجادلة عقيمة معه، وأدارت وجهها إلى النافذة المجاورة لها، وهي تزفر بضيق شديد.

لكن الذئب التفت إليها متسائلًا:

- من هذا؟

نظرت إليه، وقالت ساخرة:

- هل لاحظته أخيرًا!

إنه الطفل الذي كان بصحبة الكهل، الذي انضم إليك عند حاجز التفتيش.

امتلأت نظراته بالأسف الشديد، وهو يتأمل الطفل الذي استكان بين ذراعي "كاترين"، وبادله الصغير نظرات لم يستطع أن يتحملها، فأدار وجهه إلى الطريق.

أكملت "كاترين" بلهجة غلب عليها الأسى:

- تعلق بعنقي، وعجزت عن تركه هناك وحيدًا، بعد أن فقد مرافقه.

تعجبت "كاترين" كثيرًا عندما نظر إليها الذئب، ولأول مرة نظرة امتنان لما فعلته مع أحد أطفال بني قومه.

أدار وجهه إلى الطريق من جديد، وقالت بعد أن عاد إليها الهدوء:

- علينا أن نعيده لأهله.

قال باقتضاب:

- وهل تعرفينهم؟

قالت:

- أخبرني الرجل الكهل أنهم في المستشفى الجنوبي.

الغريب أنه هو أيضًا لا يعرف أهله، لقد تولي مسئولية إعادة الطفل لأهله، بعد أن اعتقلوا أمه في جروزني.

عقد الذئب حاجبيه ولاح في وجهه الألم، ثم عاد من جديد يتأمل ملامح الصغير، ولانت ملامح وجهه بالحنان.

ابتسمت "كاترين" قائلة:

- لم يرفع عينيه عنك منذ رآك، ترى، هل وجودك يشعره بالأمان؟ أم أنه ينظر إليك كمثل أعلى، يتمنى أن يصبح مثله؟

قال بلهجة حزينة:

- أو ربما كمجرم سلبه الأمل الوحيد المتبقي لديه، ليعود إلى أهله!

قالت "كاترين" بتعاطف:

– على العكس، لو كان هذا هو ما يدور بذهنه لرفض البقاء معنا، لقد كنت أراقبه جيدًا، كان منجذبًا إليك، من قبل أن تبدأ تلك الأحداث الرهيبة عند الحاجز!

ثم تساءلت بتعجب:

– مازلتُ لا أفهم، كيف ألقيت بنفسك في ذلك الموقف الرهيب؟ لقد نجوت بأعجوبة!

أتزج بنفسك إلى الهلاك من أجل امرأة لا تعرفها!

قال:

– وماذا لو كانت تلك المرأة هي أنت، أما كنت تتمنين أن يسعى أي إنسان لإنقاذك؟

ارتسمت ابتسامة إعجاب على شفتيها:

– أتمني من كل قلبي لو كان هذا الإنسان هو أنت.

تنهدت بيأس عندما تجاهل الذئب مشاعرها الممتلئة بالإعجاب، ولم يلتفت حتى إليها، بل بقي صامتًا، وعيناه منشغلتان بالطريق.

كانت متأثرة للغاية، فقالت بأسف:

– لازلت عاجزة عن الاستيعاب، لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة، وبشكل دموي يفوق حد التصور!

لم يكن الأمر يستدعي كل هذا العنف!

قال الذئب باقتضاب:

– (Up Mopping)

سألت "كاترين" متعجبة:

- ماذا قلت؟

كرر الذئب:

- ((Up Mopping الكنس أو المسح"

وباللغة الروسية (zakhistki).

كاترين باهتمام:

- وماذا يعني ذلك؟

الذئب:

- (الكنس، أو المسح) هي الخطة التي وضعها الكرملين ووزارة الدفاع الروسية للتعامل مع الشيشان.

وتقضي هذه الخطة بقيام قوات الأمن الروسية بتمشيط ومسح القرى والبلديات، التي تمثِّل أماكن يشتبه بأن بها مقاتلين، والقضاء عليهم في أماكنهم، فلا وقت لديهم للاعتقالات.

ثم تقام حواجز تفتيش، يتم من خلالها اعتقال كل من يحاول الخروج، وإدخاله ما يعرف بمعسكرات الفرز، أو(filtration camps) والتي تحولت بدورها إلى معسكرات تصفية، يتم من خلالها القضاء على من يشتبه في انتمائه للمقاتلين، وإطلاق سراح من تبقى!

أو بشكل أكثر وضوحًا، إطلاق سراح من يدفع رشوة مالية للجنود والضباط.

عقدت "كاترين" حاجبيها:

- أذكر أن منظمة العفو الدولية أصدرت تقريرًا موجزًا قالت فيه

(إنها عثرت على نمط جديد من انتهاكات حقوق الإنسان في منطقة شمال القوقاز، فبعض الأشخاص يُعتقلون بصورة تعسفية، ويُحتجزون بمعزل

عن العالم الخارجي، وهناك يتعرضون للتعذيب وسوء المعاملة، لإجبارهم على الاعتراف بجرائم لم يقترفوها، وبمجرد توقيعهم على "اعتراف"، يُنقلون إلى مكان احتجاز آخر، حيث يُسمح لهم بالاتصال بذويهم وبمحامين من اختيارهم، إلا إنّ الاعتراف قد يبدو "دليلاً" كافياً لضمان إدانتهم.)

شردت "كاترين" بعيدًا، ودار في رأسها شريط طويل من الذكريات، وهي تسترجع كل ما رأته وكل ما مرَّ بها منذ أن دخلت أرض الشيشان، وقالت ببطء:

- هل كان هذا هو مصيرك المحتوم، لو لم يتدخل ذلك الشرطي لإنقاذك؟

أجابها صمته بأكثر مما كانت تريد.

أسندت رأسها إلى المقعد، وأغمضت عينيها وكأنما لا تصدق:

- الآن فقط فهمت، إن "الحرب على الإرهاب" التي تشنها روسيا، ما هي إلا ذريعة لتبرير الانتهاكات المنظمة لحقوق الإنسان في الشيشان.

تنهدت بعمق وهي ممتنة في أعماقها، أنها نجت من ذلك المصير المظلم.

ثم قالت، والدهشة لم تزايلها بعد:

- تساءلت كثيرًا عن السبب الذي يضطر صحفية روسية كـ (آنا بوليتكوفسكايا) أن تقول في صحيفه "نوفايا جازيت" أنَّ دور قوات الأمن في الشيشان يتميز بالفوضى واللا قانون، ولا يوجد أي قرار من أجل تنظيم عمل هذه القوات في الشيشان، ويبدو أن القرار الوحيد الذي اتخذ هو السماح لهذه القوات بفعل أي شيء".

قالت بعد صمت طويل:

- أخبرني، لم يطلقون عليك الذئب؟

قال بهدوء:

- لست الذئب الوحيد، كلنا ذئاب.

ابتسمت:

- أقصد لم اتخذتم الذئب شعارًا لكم؟

قال:

- هناك أسطورة في ثقافتنا تقول (إنّ عاصفة هوجاء تهبّ، فيخاف منها البشر والحيوانات، فتدمّر كلّ شيء حتى لا يجد الناس مكانًا يجتمعون فيه، فالشجر قد اقتلع من جذوره، والبيوت قد تهدّمت.

ويبقى ذئب وحيدًا يقف بشموخ على صخرة ناظرًا إلى العاصفة، فيتشبث الذئب بمكانه دون حراك، حتى عندما ينسلخ جلده يبقى صامدًا لا يتحرّك، ولا يصرخ، ويبقي محدقًا بعدوّه إلى أن يموت).

وهذا هو حال الشيشانيّ، فهو سيبقي على الجبل ينظر إلى الموت المحيط به دون أن يخاف منه.

لهذا يشبّه المقاتل الشيشانيّ نفسه بالذئب ويعتدّ بصفاته التي يتميّز بها، فجعله في علم الشيشان شعارًا له جالسًا على صخرة تحت ضوء القمر وحيدًا، للدلالة على عزلة الشعب الشيشانيّ عن بقيّه الشعوب،

إن الذئب يستحيل ترويضه، تمامًا كالشعب الشيشاني. وهو مخلص لشريكه، ويساهم الذكر في تربيه الجراء. وهو الحيوان الوحيد الذي يزداد

شراسة مع التقدّم في العمر. و يكون في قمّة شراسته عندما يُجرح. ولا يصرخ عند الموت، ويبقي محدقًا بعدوّه حتى يموت.

صمت قليلًا، ثم أردف بلهجة عميقة، اهتز لها فؤادها:

- هكذا الشيشانيُّ!

***

(8)

قالت بسرعة حتى لا يعود لصمته، وقد سرها كثيرًا جذبه للحديث:

– كيف احتلت القوات الروسية الشيشان؟

طال صمته، لكنها لم تيأس من أن تجعله يتكلم، فقالت:

– أريد أن أعرف الحقيقة!

قال بهدوء:

– وبعد أن تعرفي الحقيقة؟!

قالت بدهشة:

– أنشرها للعالم.

قال بسخرية مريرة:

– وهل سيغير هذا من الواقع؟

قالت بدهشة:

– ألا يهمك أن يعرف العالم الحقيقة؟! أن يفهم قضيتكم، أن يتدخل لحلها؟

قال:

– وهل تعتقدين أنهم لا يفهمون؟ انهم يعرفون منذ زمن بعيد، منذ أول مرة اقتحم فيها الروس الشيشان، بعد استقلالها عام ١٩٩٤ وأجبرناهم على الخروج من أرضنا أذلاء عام ١٩٩٦

خرج الروس ومنهم من يبكي، من مرارة الهزيمة التي لحقت بهم على أيدي قله من المجاهدين!

لقد كانت النية مبيتة على الغدر رغم الاتفاقيات والمعاهدات، لقد صرح الجنرالات الروس للوفد الشيشاني:

- (إننا سوف نعود إلى الشيشان، ولو بعد خمسين سنة (.

ولقد صدقوا...

وعادوا مرة، ومرات، وكلما أخرجناهم، يعودون من جديد.

وفي كل مرة يكررون نفس السيناريو بحذافيره، يتحرشون بنا، ويعملون على إثاره الفتن والقلاقل، ويحاولون اغتيال الزعماء وقادة الجهاد، ليحطموا معنوياتنا، ويزرعون عناصر من استخباراتهم داخل المجاهدين، ويمارسون علينا حصارًا اقتصاديًا شديدًا بهدف تجويعنا، ويمنعوننا من التعامل مع العالم الخارجي.

وهكذا يمهدون الطريق أمام التدخل العسكري، وبعدها يقومون بعمل سلسلة من التفجيرات والعمليات الإرهابية في روسيا يتهموننا بها، وهكذا يكون المبرر أمام شعبهم وجنودهم وأمام العالم لغزونا، موجودًا.

قالت:

- ولكن لماذا أنتم بالذات؟

قال:

- يريدون استغلالنا والاستفادة من النفط الشيشاني، ومن المناطق الزراعية والصناعية في الشيشان.

كما أن الشعب الشيشاني من أبغض الشعوب إلى الروس، كما تذكر الأساطير والروايات الروسية.

يحلمون بتكوين إمبراطورية روسية على غرار أوروبا الموحدة، وهذه الامبراطورية لا مكان للإسلام فيها.

هتف بمرارة:

- والعالم كله يعرف، ويبارك المجازر والانتهاكات الروسية في حقنا في الحرب السابقة والتي قبلها، والتي قبلها، كم أعطونا من عهود وحددوا مواعيد لإيقاف الحرب، دون أن نرى تحركًا حقيقيًا على الساحة، مثل ما تحركت قوات الناتو خلال ثمانٍ وأربعين ساعة فقط، واتخذت قرارات صارمة في تيمور الشرقية منذ سنوات عديدة، ولكن نحن... مسلمون!!

قال الكلمة الأخيرة بسخرية لاذعة تمتلئ بالمرارة!

همت أن تقول شيئًا...

لكنه سبقها قائلاً:

- اقتربنا من القرية، سنبيت ليلتنا هنا في مكان آمن، لدى عائلة شيشانية، فلا شك أنكما متعبان وجائعان.

قالت باسمة:

- وأنت أيضًا، أم أنك لا تجوع؟

قالت عندما لم يرد عليها:

- هل هذه العائلة هي إحدى المساعدات، التي قدمها لك الشرطي الشيشاني؟

قال:

- الكثير من عناصر الشرطة الشيشانية متعاطفون مع القضية ومع المجاهدين، بل إن بعضهم سعى بنفسه للعمل في الشرطة في محاولة منه لتسخير جهوده في مساعدة المجاهدين والتخذيل عنا.

قالت باسمة:

- كما حدث اليوم!

قال منهيًا الحوار:

- وصلنا إلى البيت المقصود.

كان الظلام قد زحف على المنطقة كلها، عندما دخل الثلاثة إلى أحد منازل القرية الصغيرة.

من أول لحظة وضعت "كاترين" قدميها في ذلك المنزل، وشعور عجيب بالراحة والأمان يغمرها.

فبرغم موقفهم الدقيق ومطاردة الروس لهم، وقلقها من أن ينكشف سرهم أو أن يقوم أي شخص بالإبلاغ عنهم،

وبرغم عدم سابق معرفتهم بأهل هذا البيت، إلا أنها تعجبت من كم الحفاوة والترحيب الذي غمرهم، منذ وطئت أقدامهم ذلك البيت القروي الصغير.

فالسيدة ربة البيت، قامت بنفسها بالترحيب بهم وتقديم الطعام لهم، وابنها "آدم" الفتى الظريف الملتحق حديثًا بالجامعة، وقف على خدمتهم وعمل على راحتهم.

وعندما التف الجميع حول المائدة الزاخرة بالطعام الساخن الشهي. أخذت الأم الطيبة الطفل الصغير وأجلسته على ساقيها، وبدأت تداعبه بحنان وتطعمه بيديها.

لكن دهشتها كانت كبيرة عندما رفض الطفل أن يفتح فمه، أو يتناول أي طعام!

نظرت الأم ل"كاترين"، وسألتها:

- ألن يأكل؟

زفرت "كاترين" وقالت بإحباط:

- لا أدري كيف أتصرف! أخشى أن يكون مصابًا بصدمة أو شيء من هذا القبيل، فهو لم يفتح فمه منذ أن التقيته، حتى إنني لا أعرف حتى الآن ما اسمه.

مسحت الأم على شعر الصغير بحنان، وحاولت إطعامه من جديد.

لكن الصغير أبى!

نقلت الأم عينيها بين الصغير والذئب، وقالت له:

- ربما لو رآك تأكل، فقد يأكل!

نظر إليها الذئب، وقال متسائلًا:

- أنا؟!

أومأت برأسها قائلة:

- نعم، فهو لم يكفَّ عن مراقبتك منذ أن جلست إلى المائدة.

ابتسمت "كاترين" مؤيدة:

- ألم أقل لك؟ إنه لا يشعر بالأمان إلا في وجودك!

دارت عيناه في وجوههم بحيرة، ثم مد يده أخيرًا إلى الطعام، وبدأ يأكل عندما وجد الجميع ينظر إليه مترقبًا.

ولكم كانت دهشته عظيمة، عندما فتح الصغير فمه هو أيضًا وبدأ يأكل.

ابتسمت الأم برضا واطمئنان، وهدأت "كاترين" وأخذت تستمتع بطعامها بهدوء، بعد أن اطمأنت على الصغير.

أما "عمر" فأخذ يتأمل ملامح الصغير، وهو حائر من تلك النظرات العميقة الصامتة، التي يختصه بها دون الآخرين.

لكن شعورًا غريبًا انتابه، وسيطرت على عقله فكرة سوداوية، جعلته يعجز عن تحمل نظرات ذلك الصغير، فدفن بصره في طبقه المليء بالطعام، ولم يرفعه إلا بعد أن انتهى الجميع، وقاموا عن المائدة.

جلسوا جميعًا في البهو الواسع، يتسامرون بود حول المدفأة والتلفاز، وانضم إليهم الجد الكبير، الذي تجاوز الثمانين بأعوام عديدة.

ودار الحديث حول أحوال القرية وأحوال البلد عمومًا، ولشد ما أدهش "كاترين" أن أيًا منهم الجد أو الأم أو حتى الفتى "آدم"، لم يسألونهما عن أي شيء، أو عن سبب مقدمهم في ذلك الوقت، أو حتى عن أسمائهم.

واكتفوا بما قاله الذئب لهم من أنهما صحفيان، ضلَّا الطريق وساعدهما الشرطي الشيشاني، وأعطاهما هذا العنوان ليبيتا ليلتهما، ويلحقا في الصباح بالوفد الصحفي.

لكن الصمت هبط على الجميع، عندما بثت نشرة الأخبار في التلفاز نبأ الأحداث الدامية، التي حدثت اليوم عند حاجز التفتيش، وانتبهت "كاترين"، وتوترت أعصابها وعقدت حاجبيها، عندما سمعت المذيع يقول إنَّ ثلاثة من الإرهابيين هربوا من الموقع، بعد أن قتلوا اثنين من قوات الأمن الروسية وجرحوا خمسة.

وهبط قلبها في قدميها وسكن الرعب خلاياها، عندما قال المذيع إن قوات الأمن الروسية تبحث عن رجل وامرأة، انتحلا صفة صحفيين.

نظرت السيدة في وجه "كاترين"، ولاحظت قلقها الشديد وفهمت بذكائها سبب القلق الذي اعتراها، فقالت مطمئنة:

- لا أظن أن باستطاعتهم الإمساك بالصحفيين، فلا شك أنهما غادرا البلدة، وربما يكونان الآن في مكان آمن، يعجز أحد عن الوصول إليه.

نظر إليها الذئب بامتنان كبير، وقال بلهجة ذات مغزى:

- وربما يبيتان ليلتهما في أمان بين أناس طيبين.

هدأت "كاترين" تمامًا، وشعرت بالأمن يحيط بها من جديد، وهي تتأمل تلك الوجوه الودودة الطيبة، مما جعلها تتحدث براحة ودون تحفظ.

تنهدت بأسى، وهي تسترجع تلك المشاهد المؤلمة في ذاكرتها، ثم قالت:

- لا أدري كيف بدأ الأمر؟ ولأي سبب تُسال كل تلك الدماء؟

أمن أجل امرأة ترتدي وشاحًا فوق رأسها، يُقتل كل هؤلاء البشر؟

ألم يكن من الأسهل أن تخلعه بهدوء، ويمر الأمر بسلام؟

قال الذئب بلهجة صارمة:

- المشكلة ليست في الوشاح، لو لم تكن تلك المرأة ترتدي وشاحًا، لبحثوا عن ألف وسيلة أخرى، لإذلالنا وإهانة مقدساتنا.

نظرتْ إليها الأم، وقالت بهدوء:

- يا بنيتي، الأمر ليس مجرد غطاء تضعه المرأة على رأسها، بل هو عقيدة في صميم ديننا، وهم يفهمون ذلك جيدًا.

إنها حرب على الإسلام!

هتف الفتى "آدم":

– هذا ليس موقفا فرديًا، أو مصادفة، بل هي سياسة منظمة ومتعمدة، قرأت تصريحًا للرئيس الروسي يقول فيه:

– (إني أحارب عدوي الإسلام، حتى لا يتفشى ويتجاوز إلى آخرين.)

كما قال في تصريح آخر:

– (إننا سوف نقضي على الإرهابيين في داغستان والشيشان، ثم نحول الباقين إلى النصرانية.)

أجابه الذئب:

– الرئيس الروسي لا هم له إلا إصدار التصريحات، التي يزايد فيها على تصريحات الرئيس الأمريكي، حين أعلن أن البلدين معًا في وجه "الإرهاب الإسلامي، أو الإرهاب الذي يشجع عليه الإسلام". أو الإسلام الفاشي كما يُطلقون عليه.

قالت الأم، والأسى يغمر كلماتها:

– يريدوننا عبيداً وخدماً لهم، ويريدون أراضينا مرتعاً خصيباً لهم؟ ذلك المعنى ثابت ومترسخ في العقلية الروسية، يتوارثونه جيل بعد جيل

قالت "كاترين" بألم:

– ولكن ما حدث هناك كان فظيع.

قتل عدد كبير بلا ذنب ولا جريرة، وأسر عدد أكبر، لا أحد يعلم إلى أين أخذوهم، ولا ماذا يفعلون بهم الآن.

"آدم":

- لقد اعتدنا ذلك، القتل والخطف عند حواجز التفتيش يحدث بصورة كبيرة ومتكررة، حتى إننا نصدق أنها عملية مدبرة ومقصودة.

لقد استشهد أخي "محمد" عند أحد حواجز التفتيش، وبنفس الطريقة، ولسبب تافه.

أكمل، والغضب يقطر من كلماته:

- قوات الأمن تعتبر كل شيشاني إرهابيًّا، وتقتل المدنيين بلا حساب، مما اضطر رئيس وزرائهم إلى الاعتراف:

- (إنَّ هذه العمليات ضد الإرهاب، لا يمكن تفادي وقوع ضحايا مدنيين فيها.)

ومع ازدياد الوضع سوءًا، وكثرة أعداد القتلى والأسرى، بدأ يظهر بوضوح الدور الإجرامي لهذه القوات، خصوصًا ما يتعلق بالرشاوي، فالمواطن الذي لديه وثائق يدفع مائتي روبل رشوة حتى يمر، والذي لا يملك وثائق قد يدفع قرابة ألف روبل حتى يتم الإفراج عنه، إضافة إلى أعمال السلب والنهب والقتل، وهذا ما دفع "فيكتور كازينوف" موفد الكرملين أن يقول:

"هناك جرائم ترتكب عند نقاط التفتيش، ويجب أن نعتذر عنها، ونطلب الصفح ممن جرتْ بحقهم".

أما وزير الداخلية الروسي فهو يعتبر العمليات - على قسوتها على حد تعبيره - ضرورية، بل وتمت بصورة قانونية. وساند الكرملين وزير الداخلية عدة مرات: الأولى حين رفض الكرملين طلبًا للبرلمان بفرض حالة الطوارئ على الشيشان، والتي تسمح بتطبيق القانون العسكري

على أي مخالفات، تقع من الجنود والضباط الروس، والثانية حين رفض السماح للسفير الأمريكي في روسيا بزيارة الإقليم، كما رفض السماح لمنظمات وجمعيات حقوق الإنسان بالتواجد. وأغلق في وجهها الحدود، ومنعها من الاقتراب من الواقع المأسوي في الشيشان.

لقدأصمَّت روسيا أذنيها، عن صرخات جماعات حقوق الإنسان،

قالت الأم بسخرية مريرة:

– مع ما تفعله بنا السلطات الروسية، من عمليات التعذيب والاختطاف والاحتجاز السري للمدنيين، فلا حقوق لأي إنسان،

هذا إن بقي على قيد الحياة!

"آدم":

– إن الاغتصابات والتعذيب وأحكام الإعدام، التي تنفذها القوات الروسية خارج سلطة المحكمة، تحدث هنا تقريبًا بشكل يومي، وهذا هو ما تؤكده وكالة الأنباء الفرنسية.

لذا فالجميع هنا في حالة من الرعب، جعلتهم لا يستطيعون حتى مساعدة جيرانهم، الأمر أسوأ بكثير من الحرب، وبإمكانك أن تسألي أي فرد هنا، الجميع يرتعد خوفًا.

قالت "كاترين" بعد أن أصبح الوضع شديد الوضوح بالنسبة لها:

– ولهذا لم يرتاحوا لوجودنا، بوصفنا صحفيين عند حاجز التفتيش، لا شك في أنهم يخشون، أن نفضح ممارساتهم وأفعالهم اللا إنسانية.

يريدون غلق الحدود، ومنع تسريب أخبار عن ممارساتهم في الشيشان، سوي ما يُمليه الروس فقط على الإعلام.

الذئب:

- لقد وضع رئيس الوزراء هدفه من الحملة على الشيشان، وهو باختصار، أن تختفي الشيشان من الصفحات الأولى للصحف،

ونجحت الماكينة الإعلامية الروسية إلى حد بعيد، في تشويه صورة الشيشانيين في عُيون الرأي العام الروسي، وبفضل خطتها الإعلامية المحكمة التي تقوم على التعتيم والانتقاء في البث والنشر، خففت - إلى حد كبير- من الضغط الشعبي الداخلي على الكرملين، كما تمكنوا من منع وصول الحقيقة إلى الرأي العام العالمي، وتحولت القضية من قضية شعب يبحث عن الاستقلال، إلى شعب إرهابي بأكمله.

ترددت "كاترين" طويلاً قبل أن تقول:

- أرجو ألا تسيئوا فهمي...

ولكني أتساءل، ما جدوى المقاومة والعمليات المسلحة! وهل تستطيع بلد صغير كبلدكم الصمود، أمام الدب الروسي العملاق، بكل عتاده وما يتلقاه من دعم خارجي وداخلي!

هل النضال ضد المحتل حقًا مُجدٍ، أم أنه مجرد انتحار كما يري البعض!

تخلل صوت الذئب العميق أذنيها، وشعرت وكأنه يتسلل إلى خلاياها:

- لولا هذا النضال، لكانت قضية الشيشان عنوانًا كبيرًا في الصفحة الأخيرة -صفحة الوفيات- بدلاً من بقائها عنوانًا - ولو صغيرًا- على الصفحات الأولى.

الحرب ليست عسكرية فقط، بل إعلامية بالدرجة الأولي، ورغم محدودية إمكاناتنا، فقد بقيت القضية حيّة حتى الآن.

إن صمود الشعب الشيشاني وتماسكه، وصمود مقاومته -والأهم من ذلك كله، عدم استجابته لما تريد روسيا فرضه علينا- كل ذلك ساهم في إحياء القضية إعلاميًّا مرة أخرى.

التفت الجميع عندما سمعوا صوتًا هرمًا واهنا يتنحنح.

لقد انضم الجد الكبير أخيرًا للحوار، مال قليلا للأمام، وبدا وكأنه يحكي عمرًا طويلا، وسنينا غابرة:

- الحرب بين الروس والشيشان ليست وليدة، بل هي قديمة، قد مضى عليها أكثر من أربع مائة سنة، حدثت فيها مذابح كثيرة للشيشان على أيدي الروس، وتم تهجير الشعب الشيشاني إلى سيبيريا وكازاخستان، بأمر من الطاغية "ستالين"، حيث قُتل من البرد أعدادٌ لا يمكن حصرها، وكذلك في حروبهم الماضية ضد الشعب الشيشاني.

أعوام كثيرة مضت، لا هي بالقريبة ولا بالبعيدة.

سنوات عايشتُ تفصيلاتها وأحداثها، وتجرعتُ آلامها ومرارتها قطرة قطرة.

أهوال وعذابات، يعجز أعظم المؤلفين عن مجرد وصفها.

حكايات وأحداث، كان بطلها الأوحد هو الموت، فقط الموت.

تنهد بعمق، وابتلع ريقه بصعوبة، وكأنما يتجرع مرارات أعوام طوال، بعدد سنوات عمره الكثيرة، وبدأ يحكي بصوت حزين:

- من أزمان بعيدة وهم لا يحملون لنا سوي الكراهية والغدر والقتل.

وإذا ما حاولوا التقرب إلينا، فهذا لا يكون إلا بهدف مصالحهم الخاصة، ليجعلوا منا سُلمًا يصعدون عليه ليصلوا لأهدافهم.

حدث في عهد روسيا الشيوعيّة بعد ما أطيح بالقيصريّة على أيدي الحركة الاشتراكيّة الشيوعيّة بزعامة "لينين" عام ١٩١٧م، اتبع "لينين" استراتيجية قذرة ليكسب التأييد العام، فقام بإلقاء خطب تنادي بحريّة الأقليّات التي اضطهدها القياصرة، وأصدر وعودًا لهذه الأقليات بالانفصال والاستقلال وبالحريّة الدينيّة، بل قام شخصيًّا بتسليم مصحف "عثمان" – رضي الله عنه– الذي كان بحوزة القياصرة ومجموعة من الوثائق الإسلاميّة والتاريخيّة الهامّة.

ومن هنا بدأت جمهوريّات إسلاميّة بالاستقلال بمباركة "لينين" نفسه،

ولكن كل ذلك كان يدار بخسة وغدر شديدين، فبعدما بدأت آثار قوّة النظام الجديد بالظهور أمر لينين بالزحف نحو البلاد الإسلاميّة دون سابق إنذار، ليبدأ المسلسل الجديد لإبادة المسلمين، بشكل أبشع وأقذر ممّا كان عليه في العهد القيصريّ الروسيّ بمرات عديدة.

إنّه عصر دمويّ بكل معني الكلمة، ونقطة حمراء في تاريخ البشريّة من صنع أكبر سفّاحين: (ستالين ولينين)، لقد تسببوا بقتل الملايين من المسلمين من دون ذنب.

قتل "لينين" حوالي ثمانية مليون نسمة من مسلمي القوقاز، وبعد ذلك خلفه "ستالين" بقتله ما لا يقلّ عن عشرين مليون نسمة بأبشع الطرق منها: مليون، رميًا بالرصاص ومليونين من المعارضين، ومليون على أعواد المشانق وسبعة ملايين من الريفيين نتيجة التأميم، واثني عشر مليونًا في معسكرات العمل، ومليون نتيجة النفي الجماعي، وكان أحد الشعوب التي تعرضت لهذا القهر والقتل هو شعب الشيشان.

لقد واجه الشيشان الاحتلال الشيوعيّ بقوّة، فظهرت ثورات عديدة ضدّ هذا الظلم، منها ثورة (إبراهيم قلدقت) عام ١٩٣٤م وغيرها الكثير، وكان الشيوعيون يخمدونها بالمجازر البشعة.

وفي أثناء الحرب العالميّة الثانية، زادت أهمية القوقاز حينما قرّر (هتلر) ضمّها مع أوكرانيا للدولة النازية، لتمدّها بالطعام والوقود، ولكنّ الشيشان لم تتدخّل بين الفريقين، وعندما انتهت الحرب أعلنت حكومة (ستالين) اعتبارها لشعوب الشيشان والأنجوش والقرم (شعوبا خائنة) نتيجة لعدم تدخلها لصالح الشيوعيين وقت الحرب وزعموا كذبًا بأن الشيشان اشتركوا في صفوف الألمان، وعليه بدأت في ٢٣ فبراير عام ١٩٤٤ م

عمليات الترحيل الجماعي إلى كازاخستان وسيبيريا المتجمدة التي تصل درجة الحرارة فيها إلى ("– ٥٨" سالب ثمانية وخمسين تحت الصفر).

تمت عمليات الترحيل بواسطة القاطرات الطويلة البطيئة، وكانت الرحلة تستغرق ثلاثة أسابيع تقريبًا في قطارات، لم يكن فيها مرافق صحية ولا تدفئة ولا حتى مقاعد، الكثير من المعمرين يذكرون هذه الرحلة الشاقة الرهيبة: كنا نتوضأ بالثلج ونصلي، وكنا نشاهد الكثير منا مُلقى على الأرض ميتًا، قد انكسر ظهره من شدة الصقيع.

الكلاب القطبية كانت تجد فريستها منا، فكانت تأكل أحشاء الإنسان وهو يصرخ: أبعدوا الكلب عني، وقد خارت قواه من شدة الجوع والبرد ولا يستطيع الهرب، وأين يهرب هذا المسكين، والكلاب كثيرة تهاجم المخيم بشراسة؟

ولعدم وجود المرافق الصحية، كان البالغون يضغطون على أنفسهم ولا يتبولون في القطارات، فمات كثيرون منهم من تمزق المثانة، إلا أن الأطفال

لم يكونوا قادرين على ذلك، مما كان يؤدي إلى تبلل القش الذي فرشت به أرضيات العربات، فتنبعث الروائح الكريهة غير المطاقة، فيلجأ المهجرون إلى إخراج القش عند توقف القطار، فتتسرب الرياح القارسة داخل القطار.

أما الحياة في المهجر فكانت صعبة جدًّا، ومليئة بالعقبات والصعوبات، كانت درجة الحرارة تتدنى عن الصفر بكثير، ومع عدم وجود بيوت وملاجئ للمهجرين.

عام ١٩٥٧م، أي بعد ثلاث عشرة سنة في المنفى، أعلن الرئيس (خورتشوف) براءة الشيشان والشعوب الأخرى، من التهم التي وجهت ضدهم، فسمح لهم بالرجوع إلى بلادهم، فرجع المعظم إلى ما يقارب من مائة وخمسين ألفًا بقوا في كازاخستان، وهاجر بعضهم إلى دول أخرى كبلاد الشام والعراق وتركيا.

اتسعت عينا "كاترين" بشدة، وتجمعت دموع غزيرة في مقلتيها، قاومتها حتى استطاعت التغلب عليها، وأبت أن تنحدر على خديها.

قالت بصوت متهدج:

- لا أصدق، أكاد حقًا لا أصدق، كيف لكم بتحمل كل تلك الأهوال والمصائب؟

كيف لم تخضعوا في ظل كل تلك المآسي؟

كيف تسري فيكم روح المقاومة حتى الآن؟

قال "آدم" بحماس:

- الشعب الشيشاني لا يعرف الهزيمة، فكما يسمينا الروس [الشعب الذي لا يرهب الموت]. وكما قيل عنا: لك أن تكسر ظهورهم ولكن لا تستطيع أن تنال من روحهم المعنوية.

لقد استشهد أخواي وزوج أختي في الحرب الأخيرة.

تساءلت "كاترين":

– فقدت ثلاثة من عائلتك! لم؟ وكيف! وأين هي أختك؟

قالت الأم بأسىً:

– تزوجت من جديد، وهاجرت مع زوجها الطبيب، مصطحبة طفليها لكي لا ترى وجوه قتلة شعبها.

وهي الآن تعمل في مخيمات اللاجئين في أنجوشيا.

شردت عينا "عمر" بعيدًا، وقال بصوت حزين:

– هنا، على هذه الأرض، يتكرر هذا المشهد مئات بل آلاف المرات.

أعرف أُسرًا عديدة، فقدت كل أبنائها الاثنين أو الثلاثة أو الخمسة، لازالت الشيشان صامدة، تقدم أبناءها ثمنًا لدينها وحريتها منذ مئات السنين، وحتى الآن.

نظرت "كاترين" إلى الأم، وقالت بتعاطفٍ كبير:

– وأنت... لمَ لمْ تغادري؟

رفعت الأم رأسها، وقالت بعزة وإباء:

– لأنّ أرضنا هاهنا، وسنظل هنا حتى ندفن فيها، ولن نتركها لهم

"كاترين":

– مع كل ما يحدث لكم؟ وكل هؤلاء القتلى، ألا تشعرون بالخوف؟!

قال الجد، بصوت يفيض إيمانًا وصدقًا:

– هذا لأنّ ما نحمله في قلوبنا وما يريدون هم نزعه منا، راسخٌ فينا كرسوخ الجبال في أرضنا.

قالت الأم بصوت يمتلئ فخرًا:

- إنه الإيمان يا ابنتي... الإيمان!

سرى في المكان صوت الذئب، يمتلئ برائحة الثأر والانتقام، وعيناه تنضحان بغضب مرعب:

- الشيشانيون لن يسامحوا أبدًا روسيا المجرمة، التي تبيد الشعب الشيشاني.

سوف يُحاسبون على موت مئات الألوف من الأطفال والنساء الشيشانيات، على التعذيب الوحشي، والمعاملة المهينة التي يعاملوننا بها، على المعتقلين في مخيمات الاعتقال الجماعي.

على المقابر الجماعية الممتلئة بجثث أشخاص، قضوا نحبهم من جراء التعذيب دون ذنب أو جريرة.

على دموع أطفالنا الذين تيتموا.

على آلام الأمهات اللاتي فقدن أطفالهن، أغلى ما لديهن في الدنيا.

ارتجف قلب "كاترين" رعبًا، وهي تتأمل وجهه الذي احمر غضبًا، وهو يردف:

- في الجرائم التي تُرتكب ضد الله والإنسانية، لا وجود للزمان ولا النسيان ولا يُعفى عنها أبدًا.

التفتت "كاترين" إلى الصغير، الذي تحول إلى تمثال صامت، يحدق باتجاه واحد فقط، وكأنّ الحياة قد خلت حوله إلا من الذئب، فلم يعد ينظر إلى سواه.

أحست الأم بقلقها على الصغير، فوضعت حدًا للموقف بقولها:

- أعتقد أنكم بحاجة إلى النوم بعد يومكم الشاق.

اتجهت "كاترين" مع الصغير، إلى الغرفة التي أعدتها الأم لهما، وأخذت تتأمل الغرفة ومحتوياتها، كانت غرفة واسعة مريحة، ومرتبة جيدًا وتحوي كل الأثاث الضروري، وسبل الراحة.

أخذت الأم تدور في الغرفة، وتتأكد من أنّ جهاز التكييف يعمل بشكل جيد، وكذلك الإضاءة.

سألتها "كاترين":

- يبدو أنّ جهاز التكييف لم يعمل من مدة طويلة!

قالت الأم:

- نعم، فمن وقت طويل لم يأتِنا ضيفٌ.

قالت بدهشة:

- ألا تستخدمون تلك الغرفة، إلا عندما يأتيكم ضيف؟

الأم:

- في كل منزل في القرية غرفة مخصصة للضيف، تسمي "غرفة الضيف"، جاهزة دومًا للاستقبال في أي وقت، ولا أحد من أهل البيت يمكنه استخدامها.

إكرام الضيف واحترامه له مكانة عظيمة لدي الشيشانيين، وخاصة في القرى.

" فالبيت الذي لا يدخله ضيف، لا تدخله البهجة والسرور"، كما يقول المثل الشيشاني.

"كاترين" بامتنان كبير:

- لا أدري ماذا أقول، ولكني حقًا سعيدة بالتعرف بأناس مثلكم!
أتمنى ألا يتسبب وجودنا هنا في أية مشكلات، أو يعرضكم لأية مضايقات.
اقتربت منها الأم، وأمسكت بيديها وهي تبتسم مطمئنة، وقالت بلهجة حانية:
- نامي قريرة البال، واطمئني.
فمن قواعد إكرام الضيف عندنا، الحفاظ على حياته، والدفاع عن كرامته، وحماية ممتلكاته مهما حدث.
ونحن قوم نحب أن نتمسك بتقاليدنا.
التفتت الأم للصغير، فوجدته قد توسد الفِراش، واستغرق في نوم عميق.
اقتربت منه وخلعت حذاءه بهدوء، ووضعت رأسه على الوسادة برفق، وغطته بالأغطية الثقيلة.
قالت "كاترين" براحة:
- أحمد الله أنه نام أخيرًا.
أردفت بأسف:
- كنت أظنه لن ينام أبدًا بعد ما رآه اليوم، لكم أشعر بالألم والشفقة لحاله!
تنهدت الأم بعمق وقالت بحزن:
- هناك آلاف من الأطفال مثله، بل وأسوأ حالاً منه، لهم الله، فهو نعم المولى ونعم النصير.
قالت "كاترين":
- هل يمكن أن أتحدث إلى زميلي؟
الأم:

- بالتأكيد!!

خرج "عمر" من حجرة الفتى "آدم"، بعد أن نادته الأم، بناء على طلب من "كاترين".

تركتهما الأم في بهو البيت، واتجهت إلى غرفة الجد، لتطمئن عليه.

سألها الذئب:

- هل تشعرين بالراحة هنا؟

هزت رأسها، وقالت باسمة:

- السيدة لا تدخر وسعًا لطمأنتي، وإشعاري بالراحة.

قالت بعجب:

- هل كل العائلات الشيشانية بتلك الحفاوة؟

قال:

- كما تقول الأساطير، وُلِد الشيشاني وقطعة حديد في إحدى يديه - رمز المحارب، وقطعة جبن في اليد الأخرى- رمز إكرام الضيف.

قالت:

- لم يسألونا أي سؤال، لم أتينا؟، أو مَن نحن؟!

قال:

- خلال الأيام الثلاثة الأولى، من غير اللائق أن يُسأل الضيف أي سؤال، فالضيف لدينا يعيش في البيت، كعضو شرف بين العائلة.

تنهدت وقالت:

- أظن أنك تشعر بالراحة هنا، ف"آدم" فتى لطيف، أليس كذلك؟

شرد قليلاً، وقال:

- نعم، يذكرني بشخص ما!

قالت بعد تردد:

- أود أن أقول، عليك أن تكون أكثر حرصًا، في إظهار مشاعرك السلبية تجاه الروس، أمام الصغير.

فكما أخبرتك، هو ينظر إليك كمثل أعلى، ويراقب كل حركاتك وتصرفاتك، ويتوحد مع مشاعرك أيًا كانت.

التفت إليها، وقال بصوت يشع بالغضب العارم، المعربد في أعماقه:

- أتظنين أنه ينتظرني، لأعلمه كيف يكره قتلة أهله وشعبه؟

لِمَ لا تسألينه عن أمه المعتقلة في جروزني!

لِمَ لا تسألينه أين أبوه الآن؟ هل في أحد المعتقلات يتجرع العذاب ألوانًا، بأحط الطرق وأشنعها على الإطلاق؟

أم رحمه الله بالاستشهاد في مقبرة جماعية، لم تُكتشف حتى الآن؟!

لم لا تسألينه عن أهله، وماذا يفعلون في المستشفى الجنوبي؟

كم منهم لايزال على قيد الحياة، وكم منهم استشهد متأثرًا بجراحه من جراء القصف الروسي؟ وكم منهم فقدوا أعضاءهم أو أصيبوا بعاهات لن يبرأوا منها مدى الحياة؟

لِمَ لا تسألينه أين بيته؟

وهل لازال هناك منه بقايا؟ أم مُحي من الوجود؟

الروس لا ينتظرون منا أن نعلم أولادنا كراهيتهم، فهم يقومون بهذا الدور ببراعة منقطعة النظير!

وفي كل الأحوال، نحن الخاسرون، يخسر أبناؤنا سلامهم النفسي، ويعيشون ما أراد لهم الله البقاء معاقين نفسيًا، يحملون أمراضًا لا شفاء منها.

ظلت تتأمله وهو يتحدث، وعيناها تتسع بتأثر كبير، وعجز جفناها عن حمل كل هذا القدر من الدموع، فتركتها تنسكب على خديها، وبقيت صامته لفترة، حتى وجدت أخيرًا ما تقوله:

- إذن فقضية السلام، قضية خاسرة!

عقد حاجبيه بشدة، وقال بصوته الذي يحمل الغضب الكثير:

- هناك حكمة شيشانية تقول: (من لا ينشُد السلام، يقعْ في الحرب)

وجهتِ السؤال إلى الجانب الخاطئ، عليك أن تسأليهم هم، هل يريدون السلام؟!

قالت بتعاطف:

- لقد عانيت كثيرًا، أليس كذلك؟

قال:

- كأي إنسان يحيا على هذه الأرض، ويسكن تلك الجبال، يسعى إلى الحرية ويرفض أن يترك وطنه للغزاة.

قال مُنهيًا الحوار:

- والآن عليكِ الذهاب إلى النوم، فغدا أمامنا رحلة شاقة!

اتجه إلى باب البيت، فاستوقفته قائلة:

- إلى أين في هذه الساعة المتأخرة؟ والجو شديد البرودة؟

قال وهو يفتح الباب ليخرج:

- سأتفقد الطريق، لتأمين المكان.

قالت قبل أن يخرج:

- فقط سؤال أخير.

نظر إليها، فقالت بتردد:

- أين زوجتك؟

شعرت "كاترين" بالندم وتمنت لو لم تسأله، وذلك عندما شاهدت النظرة الحزينة التي هربت من عينيه، قبل أن يخرج بسرعة ويغلق الباب خلفه، دون أن ينطق بكلمة أخرى.

تنهدت بعاطفة، وهي تقول بحنان:

- أيها الوحيد الغريب، لكم تفتقد أحضان أهلك وأحبتك، لكم تشتاق إلى دفء بيتك وتراب وطنك.

***

(9)

ذاب الثلج تحت قدميه، من وطأة الحرارة المنبعثة من لهيب الحزن، والغضب الذي يعربد في أعماقه، والذكريات تطارده من كل مكان.

("عمر")

ارتجف قلبه برعب، عندما رأى تلك النظرة الأليمة في عيني القائد

كان وجهه يقطر حزنًا وأسفًا. وعيناه تهربان بعيدًا حتى لا تلتقيا بعيني "عمر"

ابتلع القائد ريقه، وقال بتردد:

- لقد قصفوا مخيمات اللاجئين وقوافل المهاجرين.

قاموا بمجزرة بشعة لأهلنا المدنيين.

دمروا ثلاث حافلات مدنية محملة بالمهاجرين، وقتلوا جميع مَن فيها أطفالاً ونساءً وشيوخًا.

"عمر"، أوصيك بالصبر كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم.

احمد الله واسترجع... فزوجتك من الشهداء.

تزلزل جسده، ولم يستطع الوقوف على قدميه، وكاد جسده يهوى أرضًا، لولا أنه استند بكفيه إلى سطح المكتب.

سقط رأسه بين كتفيه، وأغمض عينيه بقوة، وأخذ جسده ينتفض بعنف.

وضع القائد يده فوق كتفه، وهو يقول بحزن عميق:

- أوصيك بالصبر يا "عمر"!

خرج صوته مشروخًا ممزقًا من الحزن والغضب:

- احترقت أشجار الصبر، واستحالت رمادًا تذروه الرياح.، ولن تعود أبدًا إلا إذا ارتوت من دمائهم.

طال صمته، ثم رفع رأسه، فاستحال وجهه كقطعة من لهب، وتساقطت حبات العرق على جبينه ووجهه، برغم برودة الجو.

أطلت من عينيه نظرة تُرجِف أعتى القلوب صلابة، وبحروف انطلقت من بين أسنانه كسهام نارية قال:

- سنشعل الأرض جحيمًا من تحت أقدامهم،

لم يتركوا لنا خيارًا سوى القتال حتى الشهادة، يجب أن نحرر أرضنا مهما كان الثمن.

أغمض عينيه بحزن بالغ، وظهرت عاطفة جياشة في وجهه وهو يكمل:

- وليرحم الله شهداءنا.

منذ هذه اللحظة، والمقاومة لا ينطفئ أوارها.

سنوات عديدة، لم تخمد فيها جذوة المقاومة لحظة واحدة.

قاموا خلالها بضربات موجعة للقوات الروسية، وكبدوا الروس خسائرَ فادحة.

كانت عملياتهم الحربية مضرب المثل في الدقة والمهارة، الخسائر الكبيرة في قوات العدو تشهد بذلك.

كانوا حقًا شوكة في حلوقهم.

وكلما ظنّ الروس أنهم قضوا على المجاهدين، وأخمدوا ثورتهم وسيطروا على الشيشان،

خرجوا إليهم من أعماق الجبال بعملية جديدة أشد وأنكى، تحطم الروح المعنوية للجنود في صفوف الجيش الروسي.

استطاعوا أن يوقعوا بالروس شر هزيمة، في مواقع عديدة حتى إن الجنود الروس كانوا يفرون، ويخلفون وراءهم أسلحتهم وعتادهم.

ليثبتوا من جديد أن المقاومة لازالت تسري في روح ذلك الشعب الأبي، وأن الغازي لا يمكنه أن يتمتع بالنصر لمدة طويلة، حتى ولو بقي قرونًا، وهذا ما عبَّر عنه الكاتب الأمريكي "سكوت روبنسون" الذي يكتب لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتور- عندما قال:

- "من السهل على روسيا أن تعلن انتصارها في الشيشان، لكن الواقع غير ذلك. وفي الوقت الذي يعلن فيه كبار القادة الروس أنه لم يَعُد هناك متمردون، توافينا الأخبار بعكس ذلك، فهناك اشتباكات وعمليات قتالية وضحايا روس".

هذه الدولة الصغيرة المشاكسة، أثبتت دومًا بما يتوافر لشعبها من قوة الإرادة ورصيد الإيمان، أنها دولة عصيّة على التطويع، وأن شعبها تأبى عليه نفسه، أن يرضى بتذويب هُويته وطمس حضارته الإسلامية العريقة.

وكان الذئب واحدًا من أشد القادة بأسًا على الأعداء، وأشرسهم على الإطلاق، حتى أكسبته عملياته العسكرية البارعة، شهرة واسعة بين شباب المقاومة، وجعلت اسمه أملاً لكل شاب، يتمنى الالتحاق بكتيبة الذئب.

وكذلك اكتسب شهرة كبيرة بين صفوف الجنود الروس، إلا أنها كانت شهرة عكسية، تنبع من الكراهية الشديدة والخوف بلا حدود.

فذكره فقط يعني بأسًا شديدًا ودماء جنود وضباط مهدرة، وخسائر فادحة في العُدة والعتاد الروسي.

مما جعلهم يطلبون رأسه، ورصدت المكافآت الكبيرة لمن يدل على أية معلومات تقودهم إلى الذئب، أو حتى تكشف عن شخصيته الحقيقية الغامضة، التي لا يعرفون عنها شيئًا.

وباءت كل محاولاتهم للوصول إليه بالفشل.

وكلما حاولوا الوصول إليه، فاجأهم بعملية جديدة، تهز صفوفهم وتقوض أحلامهم بالقضاء على الذئب، أو حتى التوصل إلى أية معلومات تقود إليه.

صار أسطورة وأملًا وقدوة لكل شباب المجاهدين.

صار رعبًا وخزيًا وهزيمة في نفوس أعدائه،

صار علامة استفهام كبيرة بعد سؤال بسيط، لا يحتمل سوى إجابة بسيطة: (من هو الذئب؟)

هو ذلك الإنسان الوحيد الغريب المتألم، المحترق الفؤاد لفقد أغلى الأحباب،

ذلك الإنسان الذي يحيا فقط ليصنع لنفسه ميتة كريمة، ويبني لنفسه قبرًا في أرض حرة.

ذلك الإنسان الذي كل أمله في الحياة، أن ينال شهادة تحمله ليحيا مع مَن يحب، في عالم لا يعرف الظلم أو الغدر أو الخيانة.

ذلك الإنسان الذي لا يرضى سوى بالإسلام دينًا، مهما بذل من تضحيات، ومهما فقد كل غال.

ألقى "عمر" برأسه على الوسادة، خائر القوى بعد المجهود الذي بذله طوال اليوم، والسير الذي أضناه طوال الليل، حتى إنه لم يدخل إلى غرفة "آدم" إلا بعد أن صلى الفجر، وظنّ أنه لن يستطيع النوم كعادته كل ليلة، ولكنه نام بالفعل من شدة الإرهاق.

وكان نومه امتدادًا آخر لذكرياته وآلامه، ظل يسبح فيها حتى الصباح.

وعندما بدأ يشعر بالحياة من حوله، أحس بشيء ما يستقر بين ذراعيه.

شيء يمتلئ حياة، وتنبعث منه أنفاس دافئة،

انتفض مستيقظًا، ورفع الغطاء عن رأسه ووجهه، ليرى ذلك الشيء الملتصق به.

تأمل ذلك الوجه الملائكي عبر شعاع الضوء القادم من النافذة، وتعجب كثيرًا!!

كيف استطاع هذا الصغير أن يهرب من "كاترين"، ويدخل إلى غرفة "آدم" دون أن يشعر به أحد، ويختبئ بين أحضانه حتى الصباح!

انتبه على صوت طرقات متعجلة على باب الغرفة، فخلص ذراعه برفق من تحت رأس الصغير النائم بعمق، وفتح الباب بسرعة ليجد أمامه "كاترين" بوجهها القلق!

قالت بقلق:

- عفوًا إذ أيقظتك ولكنَّ الصغير...

وضع سبابته على فمه مشيرًا إليها لتخفض صوتها، ثم أفسح الطريق، وأشار بيده إلى الصغير النائم في الفراش.

ولم يكن يتوقع أن تندفع "كاترين" إلى الداخل، وتقف أمام الفِراش تنظر إلى الصغير، ثم انحنت تمسح على شعره بحنان وقالت:

– يا إلهي، لقد أفزعني حقًا، تخيلت أنه رحل وحده!

التفتت إلى "عمر"، الذي لايزال متجمدًا عند الباب المفتوح، ثم اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

– إنه يحبك، ولا يشعر بالأمان إلا في جوارك.

لك تأثير عجيب على كل من يقترب منك!

كانت نظرات الإعجاب تشع من عينيها، ثم انقلب الإعجاب إلى ضيق عندما خفض بصره، وأشاح بوجهه إلى الحائط، متجنبًا النظر إليها.

قال بصرامة، وهو يهم بمغادرة الغرفة:

– استعدي، علينا الرحيل في أسرع وقت.

تناولوا إفطارهم، ثم قاموا بتوديع الأسرة الطيبة الكريمة، التي أحسنت استقبالهم.

وشكرتهم "كاترين" بامتنان كبير لحسن ضيافتهم.

ولم تنس الأم الطيبة أن تجهز لهم كمية من الطعام، ليتزودوا بها في رحلتهم.

طوال الطريق، و"كاترين" تحاول باستماتة جذبه للحديث من جديد، إلا أن صمته هذه المرة كان أشد وأقوى.

وكلما اضطر للكلام كان يرد عليها بإجابات مقتضبة، مما أورثها شعورًا بأن سؤالها الأخير الذي سألته إياه، هو السبب في ذلك الجدار السميك الذي بناه حول نفسه.

تُرى هل تجاوزت منطقة محرمة لديه؟

كان السؤال يلح عليها، لكنها انتبهت، عندما أوقف السيارة، وتكلم أخيرًا:

- سأتركك هنا، ادخلي هذه القرية التي أمامك، ستجدين هناك ممثلي اللجان الدولية والصليب الأحمر ومخيمات اللاجئين.

نزلت من السيارة ببطء، وقالت بصوت رقيق وهي تبتسم له:

- أشكرك لكل ما فعلته لأجلي.

لم يرد عليها، بل لم يلتفت إليها!

فانتقلت عيناها تلقائيًا إلى الصغير، ومسحت على شعره، وقالت بحنان وهي تنظر في عينيه الوديعتين:

- كنت أتمنى أن أظل معك، حتى تعود إلى أهلك وأطمئن عليك، ولكني متأكدة أنك ستكون في أمان معه.

قبّلتْ رأس الصغير بحب، وتنهدت بعمق وهي تقاوم دمعة تصر على مغادرة جفنيها:

- وداعًا يا مَن لا أعرف اسمه.

أتمنى حقًا أن تعود لأهلك، فليرعَك الله.

التفتت إلى الذئب قائلة:

- أتعلم أن هناك تشابهًا كبيرًا بينكما، أنت أيضًا لا أعرف اسمك!

أدركت أن سؤالها الضمني لن يحظى بإجابة سوى صمته المعتاد، لكنها لم تغضب من صمته هذه المرة، بل قالت بصدق:

- سأنشر كل ما سمعته ورأيته، وأعدك أن يصل صوتكم إلى العالم.

قال ساخرًا دون أن يلتفت إليها:

- إن كان للعالم آذان، فليس لهم قلوب. ورغم كل ما يفعلونه بنا، فسوف نعود وننتزع حريتنا بأنيابنا.

ارتجف قلبها من كلماته، وهي تراقبه وهو ينطلق بالسيارة، ورحلت عيناها خلفه بإعجاب كبير، ثم رفعت أحد حاجبيها لأعلى، وهمست بابتسامة ماكرة:

- أنا واثقه من أننا سنلتقي ثانية!

دخلت القرية وظلت تبحث عن زملائها حتى وجدتهم، واستقبلوها بفرحة وترحاب كبير بعد أن ظنوا أنها اختطفت.

وهبّ المصور المرافق لها من مكانه، وهو يهتف بدهشة عارمة:

- "كاترين"! أين كنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

قالت وهي تنظر إلى مدخل القرية، هناك حيث رحل الذئب:

- لو قلت لك إنني جئتُ إلى هنا في رعاية ذئب... ما صدقتني!

فجأة دبّ في أطرافها نشاطٌ غريب، وقالت بحماس وهي تتجه إلى الحمام:

- أحتاج إلى أخذ حمام وتبديل ملابسي بسرعة، فعليّ المغادرة الآن

سألها المصور:

- إلى أين!

هل نسيتِ أنّ علينا العودة إلى الديار غدًا؟

قالت بعجلة:

– لن أعود، فلم أكمل موضوعي بعد، عليك بتدبير سيارة لنا، سترافقني إلى المستشفى الجنوبي.

قال بذهول:

– ماذا؟!

التفتت إليه، والتمعت عيناها ببريق عجيب:

– حدسي يخبرني أنّ قصة كبيرة بانتظاري هناك!

***

وصل الذئب إلى المستشفى الجنوبي، وهناك التقى مدير المستشفى، وحكى له قصة الصغير، الذي لم يتكلم كلمة واحدة منذ التقاه.

وكان الطبيب رحيمًا ومتفهمًا إلى أقصى مدى، فتطوع برعاية الطفل والبحث عن أهله، وأوصى إحدى الممرضات باحتضانه، ورعايته حتى يعثر على أهله.

شكره "عمر" كثيرًا ورحل.

رحل دون أن يودع الصغير، أو حتى ينظر في عينيه،

فلم يعد في قلبه مكان لألم فراق جديد.

لم يعد هناك مكان لحزن، فقد طفح الكيل وزاد.

رحل وحيدًا...

فعليه العودة إلى المجاهدين، إلى حياة الجهاد والسلاح، تلك الحياة التي لا يعرف غيرها من أعوام بعيدة.

منذ أن فقد كل أحبته، ولم يعد له في هذه الحياة رفيقٌ سوى سلاحه.
منذ أن فقد بيته، وأصبحت كهوف الجبال بيتًا له.
رحل وحيدًا، لا يحمل معه شيئًا سوى ذكرياته،
وأمل...
أمل أن يعود يومًا إلى وطنه ليدفن هناك بين أهله وأحبته الذين رحلوا
هل يمكن أن يراها مرة أخرى قبل موته؟
وقف بجوار السيارة، ورفع هامته، وامتد بصره بعيدًا، عابرًا الأميال والمسافات.
هناك، وكأنه يراها، وكأنه يشم عطرها الذي يدفئ قلبه رغم البعد.
قد تُمحى جروزني عن الخريطة، كما يتمنون ويقولون.
ولكن هل يُمحى المعنى؟!
الرعب أو الرهب...
تلك هي جروزني.
سميت باسم قيصر روسيا "إيفان الرهيب".
لم يكن يخطر بباله، أن الاسم الذي اختاره لها كان ضده، لا له، فقد كانت دائمًا شديدة عصية عليهم.
سنه ١٨١٨ أراد الجنرال "يرملوف" أن يجعل من تلك المدينة أو الحصن آنذاك، رمزًا للإرهاب أو الرعب الروسي، حتى لا تستيقظ جذوة الجهاد وروح النضال وحب الحرية في نفوس الشيشانيين على مر الأزمان...
"يرملوف"، عمل لاستراتيجية ذلك الزمان...
لكن استراتيجيتهم الآن، هي محو جروزني عن الخريطة...

ولكن، محو غروزني يعني تهجير آلاف المواطنين الشيشان المسلمين من ديارهم...

قسمٌ من المهجرين سيذوبون في الشعب الروسي، وعندها، علينا كمسلمين محاربتهم آنذاك لأنهم أعداء معتدون...

وقسمٌ منهم سيذوبون في بقية الشعوب فيسهل السيطرة عليهم، أما المجاهدون فسيلجؤون إلى الجبال، ويعيشون مع البورز صديقهم الوفي ((البورز أي الذئب))، وعلى مر الأيام والأزمنة، ستعاود تلك القبائل الجبلية الشرسة محاربتهم لبني جلدتهم، الذين ذابوا في الشعب الروسي.

وهذا هو الجنون بعينه، ولكنه حدث!

حدث عبر مئات السنين من الحروب المتواصلة.

يتمني الروس محو جروزني من التاريخ،

وإذا اختفي الرمز هل سيختفي المعنى؟!

لقد انقلب المعنى إلى الضد.

فكل لغات العالم تنطق بـ(جروزني)

أصبحت تلك الكلمة رمزًا،

بل معادلة رياضية، قلبت معادلات الأرقام في الحسابات العسكرية في العالم، لصالح المناضلين ضد إرهاب واستعمار الدول.

جروزني، أو كوكاسيا (بوابة آسيا).

قلب القوقاز.

فطالما اللغات تحمل المعاني، معيدة إلى الذاكرة جروزني (المخيف، المرعب، الرهيب).

فلا تزال بوابة آسيا عصيّة على الروس.

والمقاومة الشيشانيّة ستستمرّ على الجبال وفي أيّ مكان.

طالما هناك شيشانيّ واحد، ينبض قلبه إيمانًا ويدافع عن بلده وعن حريته، وإنّ الله ناصر لعباده، وسيأتي يوم يندم فيه الروس على غطرستهم.

لم يدر كم من الوقت ظل واقفًا بجوار سيارته أمام المستشفى، فقد جرفته ذكرياته وأفكاره بعيدًا من جديد.

لكن يدًا امتدت إليه لتعيده قسرًا، إلى محيطه الذي لم يغادره سوى بعقله وأفكاره فقط.

أدرك أخيرًا أنه لم يرحل بعد!

وعندما التفت ليرى صاحب اليد التي أعادته إلى الواقع، فوجئ بعيني الصغير تتطلعان إليه بتوسل.

ورغمًا عنه قرأ فيهما تلك الكلمة، التي حاول كثيرًا تجنبها:

(ابقَ معي)!

لم يعد الهروب يجدي، وعليه المواجهة.

نزل على إحدى ركبتيه واقترب من الصغير، وتطلع برهة إلى عينيه لكنه هز رأسه وقال بحسم:

- لا أستطيع، يجب أن أعود.

أنت هنا في أمان.

اطمئن، سيجدون أهلك، وستعود إلى أحضانهم من جديد.

هبّ من مكانه، واتجه إلى السيارة وفتح بابها، وهم بالركوب حتى لا يرى دموع الصغير.

(أبي)!!

تجمد في مكانه، وعصفت الدهشة بعقله وقلبه.

التفت ببطء إلى الصغير الذي بدأت دموعه في الهطول، ليسمعه من جديد يردد بإصرار:

- أنت أبي!

لم يدر ما يمكن أن يقوله، ولا كيف يتصرف، فظل على صمته للحظات، حتى نطق مضطرًا ليُنهي الموقف المؤلم:

- أنا لست...

انعقد لسانه وعجز عن النطق، واتسعت عيناه دهشة، وارتج قلبه بعنف، حينما أخرج الصغير من جيبه شيئًا يعرفه جيدًا.

حافظة سوداء صغيرة...

حافظة "زهرة"!

ومن داخل الحافظة أخرج صورة ضوئية، أعادت إليه ذكرياته دفعة واحدة،

صورته مع "زهرة".

***

(10)

الأخير

حمله فوق كتفه وانطلق يجري به بعيدًا.

كان الخوف يعبث بقلبه.

لقد عادت إليه الآلام من جديد، وكأنما لم تمر السنون، وكأن الزمن قد توقف عند تلك اللحظة الأليمة.

لحظة موت "مالك".

أول ألم شعر به في حياته، وأقسي ألم!

وبرغم سيل الآلام التي عاناها عبر حياته القصيرة،

إلا أنّ المرة الأولى تبقى دائمًا، هي الأشد والأقسى على النفس والروح.

ما أشبه الليلة بالبارحة!

أعادت إصابة "جوهر" إلى عقله حادثة استشهاد "مالك"، وكأنما حدثت الآن!

أخذ يسترجع ما حدث في عقله.

لقد تم الهجوم على موقع كتيبته، ومحاصرتها فوق الجبل.

لكن جنوده المجاهدين قاتلوا بشراسة واستبسال لفك الحصار.

ونجحوا أخيرًا في دحر الروس، الذين تراجعوا تحت وطأة نيران المجاهدين.

وتفقد الذئب رجاله، ليجد "جوهر" مسجى على الأرض، وصدره ينزف بغزارة، و"أحمد" يحتضن رأسه، ويضع يده على صدره، محاولاً إيقاف النزيف.

نزل على إحدى ركبتيه مُقتربًا منه، وقال ل"أحمد" بقلق:

- كيف حاله؟

قال "أحمد"، والخوف يملأ عينيه:

- إصابته شديدة.

نظر الذئب في وجه "جوهر" الشاحب، وعقد حاجبيه بقلق.

"أحمد":

- علينا نقله إلى المستشفى على الفور.

بدأ الشرود يحتل عقله، وهو يستمع إلى "جوهر" بصوته الواهن:

- لن يجدي، لن يسعفكم الوقت بعد أن دمروا السيارة، والطريق إلى المستشفى طويل.

لدي طريق أقرب بكثير!

احتضن السماء بعينيه وقال بابتسامة شاحبة:

- طريق الجنة!

اعتصر الذئب عينيه بقوة، وهز رأسه، وكأنما يريد إبعاد صورة ما تصر على احتلالها.

فتح عينيه ليجد أمامه وجهًا آخر، وجهًا يألفه ويحبه كثيرًا.

أشاح بوجهه وأغلق عينيه بألم، وهو يحاول باستماتة أن يبعد عن عينيه ملامح "مالك"، التي احتلت قسرًا وجه "جوهر".

مما جعل "جوهر" يقول بحزن:

- هل ملامحي قاسية إلى هذه الدرجة؟!

رغم كل شيء، كان العمل في فريقك هو أفضل شيء حدث لي على الإطلاق.

لقد كانت الأيام التي قضيتها بصحبتك، من أفضل الأيام التي قضيتُها في حياتي.

لقد علمتني الكثير...

كنت أعلم أنك في النهاية ستقودني إلى الجنة.

عجز "عمر" عن تحمل كلمة أخرى.

أخذ نفسًا عميقًا، ونفض رأسه، وأجبر نفسه على النظر في وجه "جوهر"، وحاول أقصى جهده استعادة ملامحه الأصلية.

أطبق بيده على ملابس "جوهر"، وهو يقول بغضب:

- لازال الوقت مبكرًا يا فتى، أتظن أن الوصول إلى الجنة بتلك السهولة؟!

عليك أولاً أن تدفع مهرها!

رفعه "عمر" بذراعيه، وحمله فوق كتفه، و"جوهر" يتأوه.

هتف أحمد بدهشة:

- إلى أين تأخذه؟ الطريق طويل، لن تقدر!

قال بعزم:

- فعلتها من قبل.

والآن، عليّ أن أحاول من جديد.

وصل إلى المستشفى أخيرًا، ووضع "جوهر" برفق على المحفة الطبية ذات العجلات، ووقف يراقبه وهو يتجه إلى حجرة العمليات، ولكنه مرة أخرى عجز عن النظر في وجهه، عندما تذكر "مالك"، فابتعد متألمًا، وألقى ببصره إلى نافذة قريبة.

وبعد فترة غاص فيها داخل ذكرياته، شعر بيد قوية تربت على كتفه، التفت ببطء إلى القائد الكبير، الذي قال بإعجاب:

- تبهرني دائمًا بأفعالك.

لقد نجحت في إنقاذ حياته.

أغمض عينيه وقال براحة:

- حمدًا لله.

وقف القائد بجواره، يتطلع إلى الجبال البعيدة عبر النافذة، وهو يقول:

- ما رأيك في هذا الشاب؟

صمت الذئب قليلاً ثم قال:

- يشبه شخصًا كنت أعرفه.

ابتسم القائد وقال:

- لهذا اخترته من بين خمسين شابًا، وأرسلته إليك، كنت أعلم مدى احتياجك لإنسان مثله.

صمت القائد قليلًا ثم قال:

- "عمر"، لمَ لا تعود إلى بيتك؟

أستطيع تدبير هوية جديدة لك، كما أن الروس لا يعرفون شخصيتك الحقيقية

أطرق "عمر" بحزن ثم رفع رأسه وقال بأسى:

– ولمن أعود؟ لقد رحل الأحبة جميعًا.

القائد بتعاطف:

– أتخشى من ألم الذكريات؟

تنهد بعمق وقال بحنان أبوي:

– لم أخشَ عليك يومًا من الموت، ولا من الأسر، وما يمكن أن يفعله الروس بك...

ولكن كل ما أخشاه أن تسحق الأحزانُ روحك، سيظل الحزن يأكل من قلبك وشبابك، حتى يفنيك بأسرع مما تفعل رصاصات الأعداء!

انظر لنفسك يا بني، إنك لم تغادر العشرينيات بعد!

أغمض "عمر" عينيه بألم، وقال بصوت يقطر حزنًا:

– لقد كانتْ تحمل طفلي الأول، لكم تمنيت أن أحمله، أضمه إلى قلبي، أسمع بكاءه، ألمس وجهه الصغير وأصابعه الدقيقة.

القائد بإشفاق:

– هوّن على نفسك يا بني فلست وحدك المكلوم!

أشار إلى الجبال البعيدة وقال:

– كل من يحيا على هذه الأرض، وفي تلك الجبال، مصابٌ بجراح قد لا تندمل مدى الحياة.

لكن الحياة لا بدَّ وأن تستمر، ولا بد أن نحياها طالما كتب الله لنا الحياة.

"عمر" بأسى:

- لكم دعوت الله أن أموت شهيدًا، لألتقي بأحبتي، انتظرت طويلاً أن يأتي الموت لكنه لم يأت!

القائد بعطف:

- لكن الله كتب لك الحياة فيجب أن تخضع لمشيئته.

صمت قليلاً، ثم قال:

- "عمر". لقد رزقك الله الصبر، ولكني أرى أنك بحاجة إلى أن ترتقي إلى درجة أعلى...

أنت بحاجة إلى الرضا، فارض يا بني بما قسمه الله لك، وعش حياتك بما يُرضي الله، حتى يحين أجلك الذي كتبه الله لك...

تزوج واعمل وعمّر هذه الأرض.

فلا يعقل أن نتركها لهم ليعمروها، ونظل نحيا في الجبال!

أما إن كنت عاجزًا عن تحمل الذكريات الأليمة، فلن أكلفك ما لا تطيق، ولكن لديّ حل آخر...

صمت قليلًا، ثم قال:

- ما رأيك أن تعود إلى مصر؟

نظر إليه باستنكار وقال بألم:

- وحدي؟!

القائد:

- نعم، ربما يَشفي جراحَك هواؤها ونسيمها، وذكريات طفولتك وصباك، وربما تجد هناك مَن تتزوجها، وتستطيع أن تخفف من أحزانك.

هزَّ "عمر" رأسه نفيًا ببطء، ومد عينيه إلى قمم الجبال البعيدة:

- لم يعد بإمكاني أن أعود إلى مصر!...

أصبحتُ جزءًا من هذه الأرض، وقطعة من هذه الجبال، كل أحبتي هنا. إن كل ما أتمناه الآن أن أموت وأدفن بجوارهم، حتى لا أستوحش في حياتي وفي قبري أيضًا.

قال بإشفاق:

- ما رأيك في رحلة أخرى؟ زيارة إلى بيت الله الحرام؟

التفت "عمر" إليه، وظهر في عينيه الحنين، وقال:

- نعم، أتوق إلى هذه الزيارة بكل جوارحي.

قال بحزن:

- لكم تمنيت أن تكون "زهرة" معي في هذه الرحلة، لكم تمنت أن ترى بيت الله الحرام بعينيها.

القائد:

- هون على نفسك يا "عمر"، فإنها شهيدة.

أغلق "عمر" عينيه بقوة وقال:

- ولكني أشعر بها حولي في كل مكان، لا ترى عيني سواها، ولا تسمع أذني إلا صوتها.

القائد بتعاطف:

- ارض يا بني، ارضَ بقضاء الله حتى يُرضيك الله.

سأرحل الآن لأدبر لك الرحلة التي اتفقنا عليها، وعندما تعود، سيكون لنا حديث آخر، ربما تصبح أكثر قدرة، على تقبل فكرة زوجة جديدة وحياة جديدة.

همس بحنين جارف، وهو يعصر عينيه ألمًا:

- ولكن قلبي لا يسعُ سوى "زهرة" واحدة.

سمع صوتها يشدو في قلبه:

- وستظل تحيا في قلبك، ترتوي من حبك لهذه الأرض.

تنهد بعمق وقال:

- آه يا أحبتي، كم أشتاق إليكم!

رفع عينيه إلى السماء، وقال برجاء:

- رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين.

لأول مرة منذ زمن بعيد، تطل أنهار الرضا من عينيه، وتنفرج أساريره بابتسامة حانية تمتلئ حبًا وشوقًا.

لم يصدق أبدًا أن بإمكانه أن يستعيد ذلك الشعور الرائع، الذي فقده من سنين طويلة.

حمله وضمه إلى صدره، كما لو كان يتمنى أن يذوب في دمائه ليملأ قلبه.

أبقى عينيه مغمضتين، وكأنما يتمنى أن يدوم ذلك الشعور للأبد.

ملأ صدره بتلك الرائحة التي افتقدها طويلًا، رائحة الحياة.

لكم عاش طويلاً ميتًا بين الأحياء، أو حيًا بين الأموات.

حتى أتى ذلك الصغير الجميل، ليعيد إليه كل المشاعر التي افتقدها طويلًا، وكأنما تجمع فيه كل من أحبهم في حياته.

حب "زهرة"، حنان "مالك"، عطف "محمد".

احتضن طفله الذي لم يرَه أبدًا، بشوق قلب متعطش للحياة، وكأنما يحتضن أحبته جميعًا، وهمس في أذنه بحب:

- "مالك"

أخذ يمسح على ظهره وشعره.

أبعد رأسه قليلاً عنه، وأخذ يتحسس ملامحه الصغيرة بأنامله، وكأنما يريد أن يحفظها في قلبه، ثم أمسك بيده، وانهال يقبل أصابع يديه الصغيرتين بحب طاغٍ.

انطلق فيض الحب والحنان، الذي ظل مكبوتًا لسنوات طويلة في أعماقه،

انطلق سيلاً يحطم كل السدود، ليتحول إلى أنهار من القبلات، أغرق بها صغيره، الذي أعاد إلى قلبه دماء الحياة، لينبض بالحب من جديد،

وأشرقت ابتسامته، لتذيب جليد حرمان السنوات الطويلة.

***

(سأعود من أجلها).

رفعت "كاترين" عينيها عن الصورة الفوتوغرافية الصغيرة، التي تحملها بين أصابعها، وأخذت تتأمل الذئب بذهول - وقد استطاعت اللحاق به عند المستشفى الجنوبي-.

كانت هي والذئب والقائد وسيدة أخرى لا تعرفها، يلتفون حول منضدة وسط غرفة كبيرة، في أحد البيوت المؤمنة، أما الصغير، فقد كان نائمًا في الدور العلوي.

أرادت "كاترين" أن ترد على كلماته، كانت تحمل الكثير والكثير من الكلمات، التي يمكن أن تقال.

لكنها هربت كلها من رأسها، عندما فاجأها بعد الصمت الطويل بكلماته، الممتلئة بإصرار وعناد، لم تقابل مثله في حياتها.

نظرت إلى القائد والسيدة، علها تجد منهما من يقول كلمة تثنيه عن عزمه،

لكنها أدركت أن حالة الذهول التي أصابتها، قد أصابتهما أيضًا.

حتى كسرت السيدة حالة الصمت التي طغت على الغرفة.

وبعينين سكنتهما الدموع فلا هي عادت من حيث أتت، ولا هي غادرت إلى خديها قالت زوجة خاله بصوت يقطر بالألم:

- لم تفعل ما فعلته إلا لأنها كانت تريد إنقاذك.

بمجرد أن وصلنا نبأ إصابتك، ونقلك إلى مستشفى في جروزني، لم تستطع البقاء ليلة واحدة، فاصطحبت "مالك" معها، وغادرت إلى جروزني، وأصر "خالد" على مرافقتها حتى لا تكون وحيدة.

تنهدت بألم وهي تكمل:

- كان الأمر كله مجرد خدعة، لاستدراجها إلى جروزني لتقع في قبضتهم،

لقد جاءت الطعنة من شخص ثقة، لم نكن ندري أنهم استطاعوا شراءه!

لا أحد يمكن أن يتوقع أبدًا أنه خائن!

ضرب المنضدة بقبضته بغيظ شديد، وهبّ واقفًا، ثم التفت إلى النافذة، ليخفي الغضب الذي غزا ملامحه.

قال بعد صمت:

- تلك هي معركتنا الحقيقية.

مع الخونة والعملاء

لن تدري أبدًا من أين تأتيك الطعنة.

استند بكفيه إلى النافذة وطال صمته، وخيم الصمت على الجميع،

لقد نجت زوجته من موت محقق، عندما فاجأها المخاض بعد تركه لها بسويعات قليلة.

تخلفت عن حافلة المهجرين التي كان يجب أن تركبها.

أنقذها "مالك" الصغير من هلاك محقق.

وفي نفس اللحظة التي عرف فيها بنجاتها، صدمته الحقيقة المؤلمة.

فهي الآن أسيرة بين أيديهم، بين أيدي الأعداء.

تنتظر أن يبادلوها به.

فإما حياته... أو حياتها.

نطق أخيرًا بصوت يرتجف غضبًا:

- لم أكن أتوقع أنّ هناك ما هو أشد وأقسى على النفس، من الوحدة وفقد الأحبة.

جحيم الانتظار، وأن تكون سببًا في إيذاء أقرب الناس إليك.

(سأعود من أجلها مهما كان الثمن).

هتفت "كاترين" بعد أن عجزت عن الصمت:

- هل جننت؟ أتريد أن تحقق لهم ما يريدونه!

لن يتركوك حيًا أبدًا، إذا ما وضعوا أيديهم عليك.

يمكننا أن ننقذها بطريقة أخرى.

أستطيع أن أحرض عليهم الصليب الأحمر، ومنظمات حقوق الإنسان، بإمكانهم التدخل و...

التفت إليها "عمر" ببطء وهو يقول:

- يبدو أنكِ لم تدركي بعد، طبيعة الصراع الروسي الشيشاني.

استطاعت روسيا إقناع العالم، أن القضية هي شأن روسي داخلي، وأن الشيشانيين ما هم إلا مجموعة من المجرمين الخارجين على القانون الروسي.

هتفت بغضب:

- ما بك؟ أتلك هي نظرتك للأمور؟

قال بأسىً:

- بل نظرة العالم إلينا وإلى قضيتنا.

لن يتدخل أحد من أجل مجموعة ينظرون إليها كإرهابيين، خاصة في ظل التحالف العالمي الذي تقوده أمريكا ضد الإرهاب.

وطالما أننا مسلمون، فنحن إذن مدانون.

هتفت كاترين بعناد:

- لا يمكن أن تيأس الآن، هناك الكثيرون ممن يؤمنون بعدالة قضيتكم، ويتعاطفون معكم.

قال:

- ولكنهم للأسف، ليسوا في موقع سلطة، وليس بيدهم قوة يمكن أن تساعدنا!

ليس لنا سوى ثقتنا بالله، ومواصلة المقاومة والصمود حتى نُحرر أرضنا، ولو بعد آلاف السنين.

هتفت "كاترين":

- وماذا عن صغيرك؟ إلى من تتركه، وماذا سيكون مصيره بعد رحيلك ورحيل أمه؟!

قال ببطء:

- له الله، ثم جدته وخالته، وكل الشيشانيين، هم أهله.

"كاترين":

- إذن فلقد اخترت!

حياتها مقابل حياتك!

نظر إليها وقال:

- بل حياتي مقابل حريتها.

عقدت حاجبيها بدهشة وتساءلت بشك:

- تقصد زوجتك؟

أخيرًا تحدث القائد قائلا بحزم:

- ومن أجل هذا فأنا أمنعك من العودة.

لا يمكنني التضحية بقائد مثلك.

المقاومة تحتاجك، سنبحث عن طريقة لإخراجها من هناك، ولكن دون التضحية بك.

قال بهدوء:

- المقاومة ستستمر بي أو بدوني.

من مئات السنين، وطوال حروبنا معهم لم تتوقف المقاومة أبدًا لفقد واحد منها.

فالمقاومة ليست فردًا، بل هي الشعب بأكمله.

التفت مجددًا إلى النافذة، وراح يتأمل الجبال البعيدة والأرض والأشجار، وهو يقول بشرود:

- وحتى لو أفنوا شعبنا، ستحاربهم الجبال والسهول والأشجار والجليد،

ستحاربهم الأرض والسماء.

رحم تلك الجبال لن ينضب أبدًا، عن إخراج المجاهدين.

أعلم أنها هناك تنتظرني، وواجبي يحتم على أن أعود إليها.

تأمله الجميع بصمت، ولم يجرؤ أحدهم على قول أي شيء!

ومرة ثانية، ظل عقل "كاترين" يردد نفس السؤال، دون أن يتحرك لسانها:

- أزوجته يقصد؟

***

(هل ستعود؟)

قالها الصغير ودموعه تطل بقوة من بين أجفانه، وهو يتشبث بملابس "عمر"، الذي جلس على إحدى ركبتيه، ليكون قريبًا من صغيره.

سقط "عمر" في بحور من الحيرة، وهو ينظر في عيني "مالك"، ولم يجد له نجاة من السؤال سوى صمته.

ولكن في النهاية، كان مضطرًا للإجابة على السؤال المؤلم، فهز رأسه ببطء وقال:

- لا أدري!

ولكن، يومًا ما عندما تصبح ذئبـ...، أعني رجلاً،

عليك أن تقطع هذا الطريق، وتعبر تلك الجبال لتعود إلى هناك.

حمله بين ذراعيه، ونهض من الأرض، ونظر بعيدًا وهو يمد ذراعه، ليشير بسبابته بامتداد البصر.

وعينا "مالك" تتابعان سبابته، وترحلان بعيدًا إلى قمم الجبال، وصوت أبيه يدوي في أذنيه:

- هناك، أصلك وجذورك، وإليها يجب أن تعود يومًا ما!

تلاقت أعينهما في صمت، وعجز "عمر" مجددًا عن احتمال نظرات الصغير، فاحتضنه بحنان فياض، وامتلأت عيناه بالدموع، لكنها ظلت حبيسة جفنيه.

وتعلق الصغير برقبته بكل قواه، لكن "عمر" انتزعه من أحضانه وأنزله رغمًا عنه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وفرد قامته لينتصر في النهاية على دموعه، ويدفنها في صدره.

أعطاه ظهره حتى لا يضعف من جديد، وخرج من الباب، وهو يسير بخطوات سريعة قوية، تعصر الثلج تحتها، مخلفة أثرًا بارزًا لآثار قدميه.

أخيرًا ترك دموعه تتحرر من صدره، عندما تأكد أنه أصبح وحيدًا.

فأغرقت وجهه، وكبده يتفتت ألمًا لفراق صغيره، حبة قلبه.

بدأت خطواته تتباطأ، وصورة "مالك" تملأ عينيه وقلبه، وهو يتذكر دقائق ملامحه، ولمسات أصابعه الصغيرة، وأنفاسه الدافئة وهي تعانق وجهه، وذراعيه حول عنقه.

تمنى لو يروي قلبه، بضمة أخيرة من ذلك الملاك الصغير.

توقفت قدماه عن السير رغمًا عنه، وكادت قواه تخور ويلتفت للخلف، أو يعود جريًا إلى صغيره.

لكنه كافح باستماتة ليتغلب على ضعفه، واعتصر عينيه ليفرغ آخر قطرة من دموعه.

عقد حاجبيه، واستنشق الهواء البارد بعزم، وهو يصطدم بوجهه.

ولم يفتح عينيه، إلا عندما جفت دموعه تمامًا.

وعندها حل محل الضعف، نظرة تمتلئ عزمًا وإصرارًا.

وبدأت أصوات كثيرة تأتيه من كل مكان، أصوات يعرفها جيدًا.

(عندما يستباح الوطن... يستباح كل شيء. وتصبح الدنيا سوقًا كبيرًا للنخاسة، فيه الإنسان أرخص من تراب الأرض).

(أرضنا ها هنا، وسنظل هنا حتى نُدفن فيها، لن نتركها لهم).

(كلنا سنموت يا صديقي. المهم هو كيف سنموت؟)

(لازالت الشيشان صامدة، تقدم أبناءها ثمنًا لدينها وحريتها منذ مئات السنين، وحتي الآن.)

(إننا لا نسعى إلى الانتقام، بل نسعى إلى الحرية يا ولدي،

وهذا هو ما لا يريدونه لنا)

(إنه حلم تتضاءل بجانبه كل الأحلام،

حلمي أن أموت شهيدًا).

("عمر"، نحن نؤمن تمامًا أننا سننتصر... حتى لو لم نر النصر بأعيننا فسيراه من بعدنا... لكننا في النهاية سننتصر).

احتفظ بصوت "زهرة" وكلماتها في أذنيه وقلبه، وانتفضت عروقه بالإصرار، وتضاءلت رغبته في الالتفات للخلف حتى اختفت تمامًا.

سار بخطوات أقوى وأسرع، يدوس الثلج مخلفًا أثرًا أعمق فيه، وعيناه تنظران للأمام، تتطلعان للعودة إليها.

أما الصغير... فقد خرج من الباب، وعيناه معلقتان بآثار أقدام أبيه الغائرة في الثلج، وتتبعت عيناه خطواته، حتى توقفت عند نقطة سوداء بعيدة، ظل متشبثًا بتلك النقطة السوداء الصغيرة، التي توقفت وسط لوحة بيضاء كبيرة رسمها الثلج الكثيف، حتى تحركت أخيرًا وتحركت معها عيناه، وقلبه يسافر خلف الجبال والسهول البعيدة.

يمضي إلى حيث يرحل أبوه.

وبدأ لسانه يتحرك، وهو يهمس بصوت خفيض، يعلو بالتدريج ليبدو واضحًا في حروف كلماته أنه ينشد أغنية!

ويعلو صوته وكأنما تردد معه الجبال:

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنـــــيا

وعند زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائـــنا

وفي أعشاش النسور أرضعتنا أمــــهاتنـــا

ومنذ طفولتنا علمنا آباؤنا فنون الفروسيـــــة

والتنقل بخفة الطير في جبال بلادنا الوعـــرة

لا إله إلا الله

لهذه الأمة الإسلامية ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا

ووقفنا دائمًا شجعانًا نلبي نداء الأمـــــة والوطن

لا إله إلا الله

جبالنا المكـــــسوَّة بحجر الصـــــوان

عندما يدوِّي في أرجائها رصاصُ الحـــــرب

نقف بكرامة وشرف على مَـــــرِّ الســـــنين

نتحدى الأعداء مهمـــــا كانت الصعـــــاب

وبلادنا عـــــندما تنفجر بالبـــــــارود

من المُـــحال أن نُدفن فيها إلا بشرف وكرامــــة

لا إله إلا الله

لن نســـتكين أو نخضـــع لأحـــــد إلا لله

فإنها إحدى الحسنيين نفـــــوز بـــــها

الشهــــــــــــادة أو النصـــــــــر

لا إله إلا الله

جراحنا تضـمدها أمــــــهاتنا وأخواتنا بذكر الله

ونظراتُ الفــــخر في عيونـــهن تثير فينا مشاعر

القـــــــــوة والتحــــــــدي

لا إله إلا الله

إذا حاولـــــوا تجويعنا سنأكل جذور الأشجار

وإذا مُنع عنا الماء سنشرب نـــــدى النبات

فنحن في ليلة مولد الذئب خرجـــــنا للدنيا

ونحن دائمًا سنبقى مطيـــــعين لله والوطن

وهـــــذه الأمـــــــــة

لا إله إلا الله

(النشيد الوطني للشيشان)

***

تمت بحمد الله وفضله

في عام 2006

سامية أحمد